
حياة
الطاهر الحداد
تأليف
أحمد الدرعي
الدار العربية للكتاب



متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem



أحمد الدرعي

حياة الطّاهر الحدّاد

1899 / 1935

تحقيق وتقديم :
محمّد أنور بوسنينة

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

جميع الحقوق محفوظة الدار العربية للكتاب

ليبيا ـ تونس ـ 1395 / 1975

إنّه يجب أن نسلّم بضعفنا
إذا كنّا ضعفاء ولكن لا يمنعنا
ذلك من أن نطلب القوّة ونسعى
في اكتسابها.

أحمد الدرعي

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem



الطــاهــر الحــداد

1899 – 7 ديسمبر 1935



احمد الدرعي

1902 ـ 28 جانفي 1965

تقــديــم

منذ ست سنوات اضحى لي شرف الحفاظ على تراث الدرعي والحداد وتحقيقه بحسب الجهد المبذول والاكتشاف الحاطل ، مع الملاحظ وان الاشقاء ابناء الدرعي أمدوني مشكورين بما رغبت فيه واني مازلت مواصلا السعي لابراز ذاك التراث لكلا الرجلين حتى تعم الفائدة الجميع . هذآ وان الحداد حين دنـا اجله اودع كتاباته الخطية بواسطة شقيقه لدى نصيره الاول الفقيد احمد الـدرعي واوصاه بها خيـرا . وهـذه الدراسـة القيمة التي كتبها رفيق الحداد تقع في مخطوط تركه مسودة قصد المراجعة في نيف وتسعين صفحة على اشكال مختلفة ، كتب البعض منها حبرا بالاسود والبعض الاخر بالاخضر .

واراني مدفوعا بحكم الواجب الى التعريف بالدرعـي ولـو بايجاز في هذا الكتاب حتى تبين للقارىء الكريـم مـلامح شخصيته وارتباطها الشديد برفيقه الحداد .

من هو احمد الدرعي ؟

رائد من رواد الحركـة الوطنية بتـونس رافق محمد علـي والطاهر الحداد في كفاحهما النقابي والاجتماعي . يقـول عنه الحداد في كتابه «العمال التونسيون وظهـور الحركـة النقابية» :

«... هو من خيرة الشباب الساعين لخير بلادهم بشعور حي وفكرة صحيحة وعميقة يؤمن باوليـة الحركـة الاجتماعيـة

ويراها منبع القوة الشعبية وسبيل الفوز في الحياة ، هـو قليل الايمان بالافكار السلبية القائمة على مجرد الجدل والحق المنطقي ، فمجيء الحركة النقابية قد كان باعثا قويا لنشاطه ملائة نفسه ببؤس البائسين وانين المظلومين ، فهـو كئيـب بكابتهم ومتالم بالامهم ... كان في مجمـوع اعماله مثـالا واضحا للاخلاص والتضحية ونضوج الراي وزكاء النفس» (1) .

من مواقفه الحازمة ثورته على اوامر التجنيس سنة 1922 وقد بعث للباي محمد الحبيب برقية احتجاج متضمنة قـول ابـن رشيق :

القابسلطنة فيغير مملكة   كالهر يحكي انتفاخا صولةالاسد

فحوكم من اجلها وكانت بداية نشاطه السياسي ... بـاشر المحاماة سنوات عديدة ثم انتدب حاكما عدليا اثر الاستقلال الى تاريخ الوفاة .

بذل الدرعي نشاطا ملحوظا في بعث العديد من الجمعيـات والعمل ضمن مشاريع خيرية عادت بالنفع العميم على الامـة التونسية واخر مبرة قام بها مساهمته في تاسيس الاتحـاد القومي للمكفوفين فبذل له الكثير من وقته وجهده وقد رافقته فيالعملوانافي بدءالشبابضمنهذهالمؤسسةحين نشوئهافزدت تعرفاشخصياعلىاخلاصه وتفانيهوحبه العميق لهذاالشعببدون ميز في ابنائه مبصرين ومكفوفين وبقي الى ان طـواه العـدم الناصح الامينوالمرشد الرشيد، ففقدت بفقده والدا روحياعزيزا

---

(1) العمال : ص 138 . الطبعة الاولى ــ تونس 1927 .

بحكم الجوار وحكم الرفقة ولا اتخلف عن نداء الواجب لكتابة حياته في دراسة مطولة آرجو تكملتها في مستقبل الزمن .
لقد لحق الدرعي ما لحق الحداد من ترهات واباطيل ، وبقي المناصر الاول والاخير له ، وابى النزول الى الدناءات وتحمل نتيجة اختياره موقفه هذا ما تحمله الحداد وبقي متمما لرسالة رفيقه الخالدة بما قام من جهد وتضحية سواء في ميدان الفكر او العمل من اجل امة عاش فترة من الزمن اوضاعها السيئة وهي ترزح تحت نير المستعمر وقد امن بحيويتها وطموحها مثل ايمان الحداد فتالما لاجلها نتيجة ما اصابها من الادواء الاجتماعية الفتاكة وقدما الحلول لتلك الامراض كل حسب مدى ظرفه الذي عاشه وسعة طاقته ...
وهذه الدراسة التي كتبها الدرعي عن حياة الحداد وان كانت قريبة في الفكرة والموضوع من كتابه الاول «دفاعا عن الحداد او بكت كتب الكبت (1) الا انها تختلف من حيث العرض والتحليل اذ نظرا لكون الكتاب السابق نقدا وردا على السيدين محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى اللذين لم يحللافيكتابهما شخصيةالحداد وتاريخهتحليلا مدققايعتمدالبحث الموضوعي المجرد فان الدرعي في بحثه هذا يضع شخصية الحداد في اطارها التاريخي المتدرج فترة فترة ، وحدثا حدثا مبرزا كل ما يمكن ابرازه ومستدلا بكل ما يمكن الاستدلال به في اوضح موقف وادق صورة ، مع ذكر الاشخاص الذين عاشرهم الحداد فتاثر بهم او اثر فيهم والملاحظ ان هذه

(1) اكتشفنا لهذا التاليف وتحقيقنا له حصل قبل العثور على مخطوط «حياة الطاهر الحداد» .

الدراسة كانت اثر وفاة الحداد بفترة من الزمن قصيرة (2) .
وليس لي ما اضيف وقد قدمت مفصلا في التقديم حياة الدرعي في كتابه الاول ، وكذلك حياة الحداد في كتابيه «خواطر» «والديوان» (3) الا اقتصار القول والاكتفاء بان اترك للقارىء الكريم هذا البحث المفعم حججا وادلة لزيادة معرفة حياة الحداد كما صورها اعز رفيق له واقرب انسان اليه فقد عاشا معا «**اليفين صديقين لم يحدث ما يكدر صفاء الود بينهما واجتمعا على الفكر والجد والعمل**» الى ساعة الفصل ، وبقي الدرعي متمما لرسالة الحداد الخالدة مظهرا الحق في موقف الحر النزيه غير مبال بالمصلحة الشخصية او غضب الراي العام وكان «**حيث واجبه مع الحق ومع الاخلاص للصداقة**» .

فالحق ابقى .. وكفى بالله حسيبا .

محمد انور بوسنينة

سكرة . 4 / 7 / 1975

---

(2) الملاحظ ان تاريخ الولادة والوفاة (1899 – 1935) كتبه المؤلف بنفسه تحت العنوان الاول : حياة الطاهر الحداد ، هذا وقد اشرنا الى التعاليق الواردة في الكتاب بحرف (د) للمؤلف وحرف (م) للمحقق .

(3) راجع ايضا مقالنا بجريدة الصباح بمناسبة ذكراه التاسعة والثلاثين – 10 – 12 – 1974 .

تصـــديـــر

لقد انتقــل الحداد اليوم الى عالــم غير عالمنــا ، تقاس فيه العدالة بموازين غير موازيننا وفيه حاكم لا يتاثر بما نتاثر به ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيــف الخبير ، حــاكم يعلم خفية الانفس وما تكنه الصدور . ولقد ذهب الى الجزاء العدل، فاذا كان صافي السريرة فسيلقــى ربه بنيته وان كان قلبــه ينطوي على شر فسيلقى مولاه بما حمل بين جنبيه . ان جعجعتنا وصراخنا لا تغني شيئا عند الحاكم الفرد ، فسواء كنا من انصار الحــق او انصار الضلال فان الله العدل سيجزي الحــداد بما يليــق بالحــداد وسيجزينا بما نحن له اهل .

وقد اثار الحداد بكتابه الاخير « امراتنا في الشريعة والمجتمع» ضجة لا مثيل لها في الصحافة التونسية وفي جميــع الا وساط بهذه الرقعة الصغيرة من الارض ، وقالت الجماعة من الناس بتكفيره ، وقال قائلون بانه عالم الشرع الذى لا نجد له مثيلا الا بين ابن حزم والغزالي وابن خلدون الذين كانوا الرؤوس المفكرة لهــذه الامــة والذين عاشوا مبغضين محقرين من معاصريهم ، يرمونهم طورا بالكفر وطورا بالزندقة او الاعتزال الى ان جاءت الاجيــال المجردة عــن الاغراض واعترفت لاهل الفضل بالفضل وعرفت ان اولئك المفكرين

العظام لم يكونوا على غير هدى وانما قد اتوا امتهم قبل اختمارها لفكرتهم فانكرتهم .

وسواء كان الحداد على ما يقول هؤلاء او هؤلاء فقد انقضى اليوم ولم يكن بد من انقضائه ، وهو امام الحاكم الذى لا يغلط في تقديره انما الشيء الذي يتفق فيه انصاره واضداده هو حالة البلاد اليوم التي تستدعي تغييرا عميقا في انظمتها الاجتماعية ، وقد كان الطاهر الحداد ارسل صيحة قوية كان ضحية لها يريد بها تنبيه الناس الى هذه الحالة ، فلم يكن الحداد يريد الخوض في اصول الدين مباشرة وانما جره اليه بحثه في تحرير المراة وتكوين العائلة التونسية على صورة تسمح للطفل ان يشب سعيدا قويا في صحته واخلاقه متسلحا للحياة . وهذا الغرض الذي يرمي اليه الحداد يتعارض مع الحالة القانونية للحياة العائلية المبنية على ما تحكم به محكمة الديوان من القواعد المستمدة من اقوال الفقهاء غالبا والتي في بعض الاحيان تخالف الدين على خط مستقيم ، فاراد الحداد ان يجيب على ما عسى ان يعترض عليه به من معارضة الدين ، مبينا ان الدين في اصوله يوافق على كل ما يرمي لسعادة المسلمين وقوتهم وصلاحهم ..

وهذه الفئة القليلة التي ترى في الحداد زعيم النهضة الحقة الذي رفضته البلاد عن جهل ، قد فقدت بموته رئيسها الذي لا يعوض ، وقائدها الذي سيكون لها مثلا في التضحية والاخلاص ، وقد اثبت موته على فكرته لجميع الناس الذين كانوا يرمونه بكل نقيصة ، قيمة هذا الرجل في الاخلاص لمبدئه والتضحية لاجله . فعسى ان يكون هذا الاستشهاد على المبدا الجديد بين التونسيين باعثا للهمم على

اقتحام الصعاب ومعلنا للملا ولو بعد حين حيوية هذه الامة التى نزلت عليها من المصائب الاجتماعية ما بعث الانحلال في جميع اركانها ونصب امامها شبح الموت هاجما على هيكلها تبدو امامه فريسة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا .

وقد بكت هذه الفئة على الحداد يوم وفاته بكاء مرا فلا ترى الاعين الا وهي تكاد تسيل مع الدموع الجارية ، ولا تسمع الا الحسرة والانة والخطباء والشعراء يندبون الفقيد ولم يبك اقرباء الحداد ميتهم كما بكاه هؤلاء الانصار .

وقد كنت شخصيا تعرفت بالحداد سنة عشرين وتسعمائة والف ، اختلطنا اليفين صديقين لم يحدث طيلة الخمسة عشر حولا التي عاشرته فيها ما يكدر صفاء الود بيننا . اجتمعنا على الفكر والجد والعمل وافترقنا في ساعة موته على ذلك . وقد نشر كتابه «امراتنا في الشريعة والمجتمع » ونبذه لذلك كل اصحابه تقريبا ودعاني بعضهم لمثل عملهم فلم ار هذا العمل لائقا بالصداقة ابدا ، ولم ار الحداد قد اتى شيئا ادا بنشره فكرة صالحة ترمي لحياة الشعب ، ولم ار نظره في تطور التشريع الاسلامي مخالفا لاصول الفقه التي تعلمناها على مشائخ الجامع الاعظم . ولم ار الحملة التي اثاروها ضده محقة . فكنت حيث واجبي مع الحق ومع الاخلاص للصداقة وابيت ان انزل الى الدناءات التي دعيت اليها باسم المصلحة الشخصية واتقاء غضب الفكر العام ، وتحملت نتيجة اختياري الموقف الذى وقفته حرا .

وقد مات الحداد اليوم وقام اصحابه يطلبون تخليد ذكراه واجمعوا على ان اقوم باكبر هذا العمل واشده وطاة علي ، وهو

تحرير تاريخ حياة هذه الشخصية التى اراها اقوى شخصية انتجتها البلاد التونسية بعد الحرب الكبرى (I) واكبر ضحية فقدتها البلاد منذ اجيال عديدة .

وقالوا انك تعرفه وعاشرته ولازمته وكنتما قرينين طيلة السنوات العديدة ، وتعرف من احواله ما لا نعرف ، ومن مداركه ما خفي علينا فلم يكن احد منا لهذا العبء الا انت .

واين لرجل ضعيف مثلي هو باخوانه ان يخرج عن دائرتهم وطلبهم والحاحهم بعد فقد الرجل الذي كان الفي ، والعضد الذي كنت اعده للمواقف الصعبة ، والفكر الذي كان يرشدني عندما تختلط علي السبل ، خصوصا وهؤلاء الاخوان تعزيتي الوحيدة فيه وسلوتي عنه ، وقد وافقهم على رايهم رجل يسيل في شرايينه دم الحداد ، ووجهه وجهه ومشيته هي مشيته وهو كانه هو . هو اخوه (2) يحمل الي ذات يوم رسالة منه قائلا « قد اوصاني بالاعتماد عليك وهو يطوقك بكامل ثقته » فكيف اخالف هذا الوجه الذى ما قابلت شبيهه بمخالفة ولا قابلني بمعاكسة قط ، فقلت : رب منك أستمد المعونة على هذا العمل وتوكلت على الله .

واخيرا لينعق الناعقون فنحن نعلم انهم لا يبلغون بجعجتهم عشر معشار ما قاموا به على رجل تونس ومفكرها في حياته . لقد خسرنا الحداد وهو كل شيء في قلوبنا ، فماذا عسانا نخسر بعده

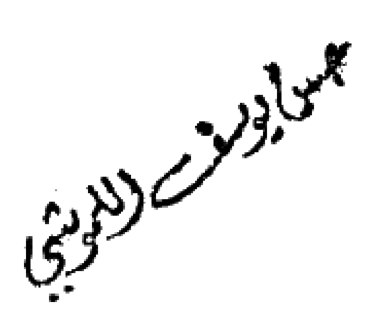
(I) الحرب العالمية الاولى . – م –

(2) السيد العروسي الحداد . – م –

من عزيز . على ان المصيبين من الناس سيقولون ان لكل فكره وان الراي محترم يناقش بالحجة والدليل والبرهـان فيقبلون على تفهم شعر الحداد ومراده . ويرجعون لكتابه الذي منحهم النصح ، ويعلمون ان من مات لاجلهم لا يستحق منهم الا كل تكريم وسيرجعون ايضا الى الحملة التي قامت حول الكتاب ويعلمون انها مجردة عن البرهان قوامها الاغراض والاحقاد ، حينئذ يبجلون صاحبه ويجلونه وينصر بذلك الحق على الباطل ان الباطل كان زهوقا .

وفي امل ان نشارك بهذا العمل فـي الانتصار للحق واعلاء شانه ننشر هذا الكتاب .

احمد الدرعي



متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

ثقافـــة الحـــداد

ان ثقافة الحداد زيتونية محضة ، واهم الشيوخ الذين درس عليهم هو الشيخ سعد السطيفي الجزائري الاصل ، تعلم بمصـر وتـونس وتحصل على شهادة التطويع وتطلع الى خطة التـدريس بالجـامع الاعظم ، ومنعه من ذلك الشيوخ لجنسيته الجزائرية الاجنبية ، وكان عالمـا حقا بجميع العلوم التي تدرس بين عـرصات الجامع الاعظم فقيها بها ، فلازمه الحداد مع جملة من اخوانه واخذ عليه فهم تلك العلـوم حتى ادركهـا جيدا ، وتوفي الشيخ سعد السطيفي بتونس واقام له تلاميذه جنازة لم تسبق لاحد من الشيوخ ، وكان الحـداد معهم في ذلك المأتم ، وكان ينتقد شيوخ الجامع الاعظم في سلوكهم واحدا واحدا واذا ذكر عن الشيخ سعد السطيفي يثني عليه ، ويعترف بفضله . وفي اخر ايام دراسته بالجامع الاعظم ما كان الحداد ليواظب، فقد صار عنده التعليم باسلوبه مملا ، لا يستفيد منه شيئا ، فكان يختلف الى النزهة خارج المدينة في الربيع، والى محلات السماع في الشتاء حتى اذا حان اوان الامتحان تقدم اليه . وكان الحداد فهامة فقد كـانت تكفيه القاعدة الاصلية ليستخرج منها الاحكام بجميع فروعها ، وقد يتباحث معك في علوم اتقنتها فتظنه واسع الاطلاع ولم يكن قد طالع من ذلك العلم شيئا ، فيبزك فيها لما ياتي به من تطبيقات للقليل الذي

سمع منها ولما يورد من اعتراضات لما يتناقض معها ، وهل رايت ابن خلدون يتكلم عن جميع العلوم في مقدمته ، ويستخرج علمــا جديدا هو علم الاجتماع ، فكذلك الحداد كان يمكنه ان يناقش فــي علوم لا يعرف منها كثيرا بقوة الحجة والاستنباط ، ويضع القواعد فيها ان احتاج لذلك يوما . ولم يكن رجل كهذا ليخاف من امتحــان التطويع الذي يجرى في جامع الزيتونة عند انتهاء دروس المرتبة المتوسطة وقد صادف في سنة 1337 هجري (1919 ميلادي) تقدمه للامتحان على مشكلة بين شيخ الاسلام اذ ذاك والتلامذة اذ ان احد الشيوخ (1) قــد انتهــى مــن دروس السنــة دون ان يختــم الكتــاب وهو الجزء الرابع مــن الدردير على سيدي خليل في الفقه المالكي وكان غالب تلامذة السنة المترشحين للامتحان يدرسون عليه فكتب بدفاترهم الغاية التي وصل اليها ، وهي التدبير ، فانتهز شيخ الاسلام هذه الفرصة ـ وهو من القائلين بوجوب التقليل من عدد المتطوعين ـ واستند على فصل من ترتيب الجامع الاعظم يوجب على التلامذة اتمام الدروس ليتمكنوا من المشاركة في الامتحان ومنع كامل تلامذة الشيخ من ذلك . فاجتمع هؤلاء التلاميذ كلهم حول الطاهر الحداد وكــان المقدم فيهم لمحاولــة المشكل فسار بهم نحو شيخ الاسلام المرحوم الشيخ حميدة بيرم . فاستمع لشكايتهم ثم قال لهم : اذا امتلا الرتل وزاد عليه الركاب فمن الضروري ان ينتظر الباقون قدوم رتل اخر ليقلهم . فــاجابه الحداد على البداهة : اذا كان الرتل لما يسر بعد فمن الممكن ان تلحق به عربة (بفتح الراء) اخرى يركبها

(1) هو الشيخ عبد العزيز جعيط ـ وقد ذكر المؤلف اسمه في كتابه : « دفاعا عن الحداد او بكت كتب الكبت » وهو قيد الطبع ـ م ـ

الباقون ويسيروا معها نحو الغاية التي يقصدونها جميعا . ويظهر جليا من جواب الشيخ وتشبيهه انه عازم على عدم مشاركتهم في الامتحان ، الا ان الوسيلة التى استعملها في جوابه للتلامذة هي المجاملة مع عدم التنازل لهم عن شيء ، ويجب ليتم الغرض ان يبقى التشبيه صحيحا ويفهم منه التعذر المطلق ويقتنع به التلامذة ، ولذا فمن الضروري ان لا يناقش ولكن الحداد لم يكن من الذين يعجزهم جواب مثل هذا الكلام فاتى بحل اخر ممكن مع ابقاء التشبيه والمحافظة على جو المجاملة ولكن ذلك قد ضايق الشيخ كثيرا فخرج لباب اخر من التخلص قائلا :

يظهر عليك ايها الشيخ (يقصد الحداد) الذكاء وانت من المترشحين لامتحان التطويع ولا يجمل بك ان تلحن لحنا فادحا كالعوام ويحسن ان تزيد عاما اخر في الدراسة حتى تتقي اللحن فلا يقال عربة (بفتح الراء) بل يقال عربة (بسكونها) لانه يجمع على عربات (**بالفتح**) ونتيجة المناقشة ظاهرة للعيان ، فاذا كان الطاهر الحداد الذي قدمه الطلبة عليهم يلحن فيكلامه ويجب انيستمر عاما اخرحتى يتقي اللحن فمن الواجب ان يستمروا جميعا . فقد اكتفى الشيخ بهذا الامتحان لهم جميعا عن امتحانهم فردا فردا . ولم يلق الحداد سلاحه فاجاب : بالجمع فعلة على فعلات كما يجمع فعلة على فعلات فيقال حسرة وحسرات وسجدة وسجدات ويقال شجرة وشجرات ونسمة ونسمات وعرفة وعرفات ، وكان لشيخ الاسلام شهرة بالاختصاص في النحو فضحك الحضور من التلامذة وهم ما يقارب المائةضحكة عالية مكنت الشيخ من اتمام المناورة بالغضب الذى راى فيه ما يخل بالادب معه وانفض الاجتماع بلا طائل .

فقصد الحداد بالجمع دار الوزير الاكبر ، وعرضوا عليه شكايتهم ووعدهم بالكلام مع صاحب المملكة في الامر واخيرا اصدر اذنه للنظارة العلمية بقبول مشاركتهم ، وكان شيخ الاسلام رئيس لجنة الامتحان فرسب الطاهر الحداد الذى كان بالامس ذكيا والذى بز شيخ الاسلام في المناقشة النحوية رغم خلو امتحانه من الخلل، ورسب معه صديقه الشيخ محمد السعيدي الذي حمله شيخ الاسلام اكبر مسؤولية في الضحك . وفي السنة الموالية تطوع الحداد وبقي الشيخ السعيدي يتقدم للامتحان كل سنة ويرسب الى سنة (1) حيث اعترفت النظارة العلمية اسميا ببلوغه درجة في العلم كافية لان تسند اليه شهادة التطويع .

وكان هذا بدء اشتغال الحداد بامور عامة لا تهمه وحده شخصيا . انه اكبر مثال للعصامية بتونس فقد ابتدا من لا شيء ووصل الى الغاية التي ما بعدها غاية في ثقافته وافكاره . فكلنا يعلم ان جامع الزيتونية بتعليمه على البرنامج الحاضر يتخرج منه كل شيء اي لا شيء ، فقد يدخل الطالب جامع الزيتونية ويتخرج منه «مروقيا» قارئا على الاموات او شيخ اسلام او في جميع الرتب التي بينها وذلك موكول الى نفسه وقابليته ليس غير ، والحداد قد وصل في ذلك لا الى رتبة رسمية هي التي يتهافت عليها خريجو المعاهد ، بل وصل الى ذروة الفكر لم يبلغها زيتوني قبله . فمن المعلوم ان الدراسة الباقية بجامع الزيتونة للطالب والمفيدة له للحياة هي علوم العربية ، ولم تكن علوم الشرع لتفيد شيئا عمليا . واكثر ما يظهر نبوغ خريجي المعهد في القضاء او التوثيق

(1) لم يذكر المؤلف تاريخ السنة ـ م ـ

او الاعمال الادارية انما هو بالتمرين على الشيء واذا كان للمشتغل به استعداد ذاتي ، وليست تثار بالجامع ابدا ابحاث تزيد العقل او تبعث على التفكير في شيء . ثم اذا حدث ذكر مباحث عقلية فهي لا تتصل بسبب بالحياة ، والعلوم المبنية على الاجتماع كالفقه والاصول لا تثير غير المباحث اللفظية ، اما الاخلاق الاسلامية فهي لا تدرس بتاتا وقلما يتخلق بها ايضا .

ومن الغريب امر هذا الجامع فانه يجب ان يقصد منه حفظ التراث الادبي الذي خلفه اسلافنا وتنميته ، وان يمثل الثقافة الاسلامية ، وان يخرج لنا مرشدين وخادمين للشعب يتبين فيهم وراثة الانبياء فاذا هو لا يخرج الا مظاهر من العلم تظهر في اللبسة والمشية ، وصارت الدعوى في الرجوع بنا القهقرى في الحياة الى ما اتخذ مثلا اعلى من التاريخ في المدنية العربية الغابرة . فقد تدفق سيل الحياة بنا الى هذا العصر منحدرين ، ولم يكن لاحد الا ان يعدم العقل ان يرجع بالنهر الى منبعه بعد بلوغه المصب ولكن ذلك ما يريده لنا انشيوخ ويريد الحداد ان يساير النهر ، غير ناسين المنبع الذي نستمد منه حياتنا والذي لو نضب ماؤه يوما لوقفنا عن المسير وركدنا ركودا يكون علينا قضاء .

ولم يكن معنى هذا ان البلاهة لازمة ليرقى الناس اعلى المراتب في الكنيسة (2) الاسلامية ـ الم يخلقوا كنيسة واكليروسا (3) للدين بعد ان كان دين البساطة ـ بل ان الذكاء

---

(2) هكذا وردت في الاصل ـ م ـ

(3) (الاكليروس) : خدمة الله في البيعة كالشمامسة والقسوس والاساقفة ، الواحد : اكليريكي ـ ج اكليريكيون ـ والكلمة نصرانية دخيلة (قاموس) ـ م ـ

معيار لترقي الاعيان فيهم الى اعلى المراتب الشرعية . انما يجب على صاحب المركز ان يكون له منطق جامد ، ويجب ان يحفظ لسانه من كلمة تتعلق بروح الدين او بما يتصل بالحياة ولو تعلقا بعيدا . فهم كما قال الطائي (على تحريف ممكن في معناه) :

ليس الغبي بسيد في قومه بل ان سيد قومه المتغابي (4)

وليس ذلك الا من الرخاوة التي اصابت الاخلاق الاسلامية وضعف الطبائع التي يتربى عليها الشيوخ منذ عهد صباهم حتى يصير اكبرهم لهم فيما يتصلون به من المعاشات والجرايات .

فهناك شيخ من مدرسي الطبقة الاولى بالجامع الاعظم يلقي دروسا ايضا بمدرسة دولية من درجة التعليم الثانوي ، وتلامذة المدرسة يعرفون اللغةالفرنسية ، وكانت حوادثانتصارات الكماليين، والجرائد العربية لا تعطي الاخبار الا مؤخرا بالنسبة للصحف الفرنسية فكان التلامذة يقراون كل يوم جريدة الدبيش تونزيان (5) للاطلاع على اخبار الحركة الكمالية، وكان مصطفى كمال يمثل الجهاد في سبيل الله ، مستعملا الدين الة في وجه محاربيه من الاروبيين ، ويجمع به كلمة الشعب التركي ، معرضا في الحالة العصيبة عن اثارة كل ما من شانه ايجاد خلاف بين صفوف امته ، وكان الشيخ يسالهم كل يوم هل قراوا بالجرائد عن زيادة المرتبات ... ولم يغلط مرة واحدة لسؤالهم عن مصطفى كمال وانتصاراته الباهرة ودخوله استانبول ،

---

(4) هذا البيت نقله الحصري في زهر الاداب ج 1 ـ ص 71 طبعة زكي مبارك ـ د ـ

(5) « La Dépêche Tunisienne » جريدة فرنسية تاسست في 25 ديسمبر 1889 وتوقفت عن الصدور سنة 1961 ـ م ـ

الامر الذي قامت له البلاد وقعدت من اقصاها الى اقصاها واقيمت الحفلات والمهرجانات في كامل تراب المملكة باعتبار انتصاره انتصارا للاسلام وللشرق عامة بعد طول الخيبة التي دامت قرونا طويلة .

وهناك شيخ اخر هو الان من بين مدرسي الطبقة الثالثة، وطلبت النظارة العلمية من الدولة اعتبارا لكثرة التلامذة الزيادة في عدد المدرسين وقدرت حاجتها بخمسين على الاقل ، وارتات الدولة اقتصادا في المصاريف ان تسميهم معاونين ، وعرضت المسالة على المجلس الكبير لفتح اعتماد بالمصاريف اللازمة لذلك في الميزان ، وطلبت الدولة اعتمادا قدره 75.000 سنويا لتعطي الواحد 125 فرنكا في الشهر فطلب النواب المسلمون لهم 200 فرنكا في الشهر وقيدوا اعتمادا قدره 120.000 فرنكا . الا ان القسم الفرنسي لم يوافق على هذه الزيادة في الاعتماد ، ولم يوافق القسم التونسي على 40 مليونا طلبها القسم الفرنسي خاصة بالاستعمار ، وكان الشيخ يرشح نفسه للخطة .

وقبل اجتماع لجنة التحكيم العليا التي تفصل في الخلاف بين القسمين قابلت الشيخ، وكان قد درس معي في الجامع الاعظم، وبما اني اطالع الصحافة الفرنسية فقد سالني عن قضية المعاونين ، فذكرت له المسالة بتفصيلها وقلت له ان جراية قدرها 125 فرنكا في الشهر ثابتة ، وبقي الخلاف في 75 فرنكا اخرى يعطاها المعاونون اذا وافق القسم التونسي من لجنة التحكيم على الاربعين مليونا . فقال الشيخ فرحا : « ان شاء الله يوافقون على هذا وعلى هذا» .

وفعلا وافق الفرنسيون على مطلب زيادة 75 فرنكا في الشهر الشيخ ووافق التونسيون على اعتماد باربعين مليونا للاستعمار .

فهؤلاء هم الشيوخ الذين ينتظر منهم ان يكونوا ورثة الانبياء في اخلاقهم وتضحيتهم ومحبتهم لشعب الله الذي اختاره لدينه .

الا ان هذه الاخلاق التي عاشرها الحداد في دراسته بالجامع لم تكن لتلحقه منها العدوى ، وبماذا أدل القارىء على خلقه المتين الا حياته التي جعلها ضحية للشعب ، والا صوته الذي رفعه عاليا بقدر ما له من قوة العقيدة وراحة الضمير ، ولو امكنه اكثر من ذلك لفعل ولو بان « يصرخ كالبركان الهائل عسى ان يزعج برعده جميع الذين ما زالوا يغطون في نومهم غارقين في احلامهم الضالة التي جعلتنا في هذا العالم مثالا لسخرية القدر » (6) .

وقد صرخ في اذانهم صرخة انفجر هو منها ، ولكنها لم توقظهم من السبات العميق وانما جعلتهم يشعرون بقلق من أيقاظهم وقطع الاحلام المعسولة عليهم ففاهوا امام وجهه بما في خواطرهم من الغل .

واذا سلم الله لامرىء فمراده تعالى ان يصطفيه ، واذا أعطاه مع ذلك الحكمة وفصل الخطاب فقد اراد ان يتم حكمته على يديه ، فابتدا الحداد من ذلك الوسط البعيد عن العصر واراد ان يلحق بعصره . ولم يمت الحداد حتى وصل الى تلك الغاية وجاوزها قليلا في الزمن ، فلم يكتف بالماضي يلحقه بالحاضر ، بل صار ينظر الى مستقبل الامة الاسلامية ومستقبل هذا العالم بنفس تحن على الضعفاء من بني الانسان جميعا ، وتنقم على الاثرة والانانية في البشر مهما كان مصدرهما .

---

(6) امراتنا في الشريعة والمجتمع ص 140 - (الطبعة الاولى) المطبعة الفنية تونس 1930 .

ففي الخمس عشرة سنةً التي قضاها الحداد في سن الرجولة ، قد ابتدا من العدم او من الاعصر الخوالي ، ليجعل من نفسه رجلا كاملا من رجال القرن العشرين . وانظر الجهاد الذي جاهد به نفسه ، وانظر المعرفة التي وجب ان يتطلع اليها ، حيث لا مرشد من الناس ولا كتاب حكمة يهدي سواء السبيل ، الى ان خرج للناس في كتاب « امراتنا في الشريعة والمجتمع » وقد قام باكبر عمل في نفسه هو هدايتها للتوفيق بين الاصول الاسلامية ومقتضيات العصر الحاضر . ويظهر له بذلك انه قد حل مشكلة المشاكل للمسلمين وانه قد مكنهم من الوسيلة التي يبقون بها مسلمين وينالون بها العزة والقوة والمجد .

لقد استغرب الحداد ضعف المسلمين بعد عزتهم ، وجهلهم بعد علمهم ، وتفرقهم اشتاتا بعد استمساكهم بالعروة الوثقى وتاخرهم في جميع ميادين الحياة ، وسبق جميع الامم لهم ، ونظر الى تكوينهم فوجد لهم اعينا يبصرون بها واذانا يسمعون بها وارجلا وايد يسعون بها لا ينقصهم عن الامم الاخرى في تكوين اجسامهم شيء وانه :

قد ارتنا العلوم نهج العلاء	ورأينا شعوبها في السماء
طوقوا ارضنا وطاروا علينا	وارونا من قوة الاقوياء
لم يكونوا من عالم الجن يوما	بل اناسا امثالنا في استواء (7)

ونظر الى بلادهم فاذا هم منتشرون في احسن بقاع الارض مناخا ، واعمرها ارواحا ، واعدلها هواء ، وابعثها للشعر والفكر

(7) من قصيد للحداد بعنوان « ضحايا الماضي » لم يسبق نشره ، وهو في مائة وخمسين بيتا نظمه بتاريخ 21 فيفري 1933 كما هو بخطه وامضائه ومضمن بديوانه المخطوط الذي نرجو اصداره قريبا – م –

واكثرها ثروة ، فما شل هذا الكمال ؟ هل هو الدين ؟ فرجع اليه فاذا هو دين الحق والهدى كمل مكارم الاخلاق ، ودعا الى الفكر وقاوم التقاليد ودعا الى التضحية وامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وكان الاسلام جهادا مستمرا بين الفكر الجديد وبين التقاليد فذلك هو الاسلام لدى الطاهر الحداد ، وماذا عسى ان يؤخذ على الاسلام حال المسلمين اليوم الا عدم فهمهم له وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، واخذهم بالمتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم (8) .

الم يكن المؤمنون هم الذين طمسوا معالم القوة في الدين ، الم يكونوا هم الذين جعلوه الة يخدمون بها اغراضهم ودلسوا على العامة والدهماء فحملوهم على فهمه من دون وجهه ، الم يكن زعماء الاسلام هم الذين :

حطموا الفكر بالفقيه ونادوا	بالرزايا لصادق التفكير
طوفوا مالكا وساموا ابن رشد	سوم خسف بمحنة التكفير
فانزوى الناس في الظلام وعاشوا	خدما للامير او للوزير
شعرهم مثل نثرهم في التغني	بملوك جادوا ببذل الكثير (9)

(8) وهم المجتهدون وليس من قائل بان الشيوخ من الراسخين في العلم وهم انفسهم يكرهون ذلك ويتبراون منه ويقولون بغلق ابواب الاجتهاد وعندهم ان « العلماء الراسخين في العلم وهم الذين يفهمون الشرع قد انقرضوا ولن يخلق الله احدا منهم وعقمت نساء المسلمين ان يلدن عالما يهدي هذه الامة ، وعليه فلم يبق الا ان نتبع اهواء قوم قد ضلوا . بمقتضى هذا المنطق نفسه نكون محرومين من الهداية الاسلامية الحقة ولا ندري حينئذ ما هي مهمة الذين يسمون انفسهم بعلماء الدين ـ د ـ

(9) من قصيد « ضحايا الماضي » ـ م ـ

وهكذا عرف الحداد مبدا السير ، ولكن بقي له ان يعرف الى اين يجب الانتهاء ، فيمكن ان نسترجع القوة والصحة والسلامة بالرجوع الى اصل الدين وهديه والى روحه الطاهرة ، ولكن على اي قاعدة نبني مستقبلنا ، وعلى اي وجه نسير ، فيجب لذلك ان نعرف ادواءنا الاجتماعية ، وندرس حالتنا العمومية ، ويجب ان نعرف مقتضيات العصر الحاضر ، ومستقبل علاقاتنا مع الامم الاخرى المكيفة بثقافة تلك الامم وذهنياتها ، ثم ان لنا حالة حاضرة متاتية لنا من ظروف خاصة سياسية واجتماعية تجب ملاحظتها للتوصل بالامة للدرجة اللازمة حتى تكون على الاقل في مستوى الامم المتمدنة في الثقافة والاخلاق والقوة .

فذلك كله قد كان موضوع تفكير الحداد ، وقد كفى لذلك عشر سنوات من بلوغه العشرين الى اصدار كتابه «امراتنا» سنة 1930 وبتلك الابحاث وصل الحداد بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الاروبية الحاضرة وحده من دون معين ، الا ما يشاهد وما يبحث في الاشياء لاستكناه سرها .

ولم يكتف الحداد بذلك بل صار يبحث في المدنية الغربية عن اوجه الضعف واوجه الخلل ويستقرىء احوال الاروبيين واقوال فلاسفتهم في نظامهم الاجتماعي والاقتصادي فبشر بقرب زواله اذ يقول :

قد تقضت بها (10) عصور الموالي	واتت بعد دولة الاموال
فتبارت قوى الشياطين فيها	تنهب المال من جهود الرجال

---

(10) الامم الراقية . ـ د ـ

واستعانت بالعلم شادته صرحا   منه طارت لذروة الامال
غير ان الحياة تغزو قواها   بنضال يمشي بها للزوال (11)

ولكنه يتحسر عن كوننا في تاخرنا لازلنا نفخر بالاعصر الخالية التي توافق في التاريخ الاوروبي عصرا انقضى بخيره وشره فيقول :

كل هذي العصور تمضي ولم نبرح   نغني بمجد عصر الموالي

ومن تامل في مقدمة كتابه «العمال التونسيون» يجد هذه الفكرة الانسانية الخالصة التي ترمي الى الاشتراكية كمبدا يسير عليه الناس في معائشهم حتى يسود الوفاق والتعاون بين البشر عوض التنافر والتحارب والاثرة . وبذلك نعلم ان تاريخ حدوث هذا الفكر في ذهنه لم يكن قريبا بل كان قبل سنة 1927 بل من وقت اشتغاله بجامعة العملة التي فتحت ذهنه للمشكلة الانسانية بعد ان لم يكن يفكر الا في الحالة التونسية ، وانما استمر الحداد في عمله على مراعاة المشكل الانساني في دائرته المحلية ، فهو اذ يعمل لانقاذ الانسانية من الشر لا يتوجه بعمله لغير هذين المليونين من النفوس الذين يقول فيهم :

مذلتهم ذلي وعزي بعزهم   وان وهبوني للسعير وقودا (12)

وهو فيما بعده اذ يشتغل بمشكلة المراة يعالجها في كتاب لها

---

(11) من قصيده : ضحايا الماضي . — م —

(12) من قصيد : املي . وقد سبق نشره كاملا بجريدة العمل 6—1—1959 اما الاستاذ محمد ابو القاسم كرو فقد نقل منه مقتطفات بكتابه : الطاهر الحداد سلسلة كتاب البعث تونس 1957 المطبعة العصرية ونظم الحداد هذا القصيد بتاريخ 26 سبتمبر 1933 كما هو بامضائه وخطه — م —

خاص عنونه «امراتنا في الشريعة والمجتمع» لا يقصد المراة التونسية فحسب وانما المراة المسلمة · فمثال المراة التونسية او قريب منه المراة العربية مطلقا ، سواء في بلاد العرب او الشام او العراق او مصر او افريقيا الشمالية ، وكل ذلك شبيه بعضه ببعض ، وكل ذلك عنده «امراتنا» ينتسب اليها كما ينتسب الى التونسية (13) وقد يتعلق بحثه الاجتماعي بكثير من احوال المراة التونسية الخاصة بها فلا يمنع ذلك ان تكون تلك المراة جزءا من المجتمع العربي الاسلامي العام الذي ينتسب له الحداد .

واذا كان ذهنه يشتغل بحالة تونس بصفة خاصة ، وحالة البلاد العربية بصفتها ترتبط معنا باوثق الاسباب العقلية والذهنية ، ويشتغل بحالة العالم الانساني بصفته جزءا وعضوا من اعضائه ، فاعجب ايضا انه يشمل كل ذلك بروحه الثائرة وتضحيته الفائقة وتفانيه في حب كل ذلك ، وهو خريج ذلك المعهد العتيق الذي لا ينير سبيل العصر الحاضر ليس في العالم كاملا ولا في جزء منه ولا حتى بالبلاد واما المشكلة التونسية فلم يعالجها احد مثل الحداد ·

وقد جرب المسلمون والعرب خاصة من عهد النهضة الحديثة بمصر من عصر محمد علي الى الان ، التوفيق بين القديم والحديث ، وادخال بعض اصلاحات مقتبسة من المدنية الغربية ، واعجبوا بالثقافة الاوروبية وانتشار المعارف بين امم الغرب ونظام العدالة مثلا ، ولكنهم اذا اقتبسوا شيئا من ذلك وادخلوه في انظمتهم كان غريبا بين انظمة اخرى لا تمت له بسبب ولا تعرف من روحه شيئا · واستمر

(13) «امراتنا في الشريعة والمجتمع» ص 2 ــ «اما في الشرق فامراتنا ..»

الامر كذلك اجيالا عديدة حتى جاء الاوروبيون لبلاد العرب واحتلوها ، واجروا فيها من انظمتهم ما راوه صالحا بالحياة الشرقية ، فزاد الطين بلة لكثرة ما دخل من النصوص الجديدة التي لا تتصل بروح الشعب ، ولا بانظمة كثيرة له اخرى ، ولم يكن من وسيلة للرجوع في هذه النصوص الجديدة المعتبرة أصلاحا بالنسبة للحالة القديمة ، بينما لا يمكن ان ينتج عنها شيء كبير . فنحن اذ نقتصر للاصلاح لا نحتاج لادخال بعض نصوص جديدة في ميادين معينة لاصلاح الخلل الذي لاحظناه فيها ، ولكن اكثر ما نحتاجه الى روح جديدة تسيطر على كافة افعالنا ومقرراتنا ، ونحتاج لاتجاه جديد نعرف الغاية التي نقصدها منه ، ونحتاج بعد ذلك لاصلاحات سريعة في كافة الميادين نجريها طبقا لتلك الروح حتى يتكون من مجموع تلك الاصلاحات نظام عام يجعلنا في مستوى طيب بالنسبة للامم الراقية يمكننا فيه ان نحتفظ بكرامتنا .

ولم يكن الامر صعب الادراك ، فقد يكفي ان ننظر حولنا الى الامم الشرقية التي قاست اطوارا مثلنا والتي هي في حالة اجتماعية تشبهنا كثيرا ، فقد عالجت تلك الامم مشكلة شبيهة بمشكلتنا وكانت النتيجة ان نجاحها موكول بسرعة تطورها وقبولها للافكار الجديدة ، فتركيا مثلا التي اسرعت في الانفكاك من الماضي بعد تحريرها ، قد توصلت الى نتائج لا يحلم بها العرب الذين جمدوا في حياتهم .

ومصر قد نجحت في امرها قليلا بقدر قبولها للافكار الجديدة . اما افريقيا الشمالية التي لم تقبل شيئا من المدنية الغربية والتي تعصبت لشيوخها واقوالهم ، فقد بقيت في اخريات الامم العربية ، لم

يؤثر عليها في نفسيتها شيء اختلاطها بالفرنسيين من منذ اكثر من مائة سنة حتى صارت المدنية العصرية تاتينا من مصر وسوريا وجميع البلاد الشرقية بعد ان تاتيهم من اروبا راسا ، من ذلك جميع الافكار المترجمة ترد علينا من طريق الجرائد والمجلات والكتب المصرية والسورية وغيرها ..

وقد اثرت المدنية الغربية في البلاد الشرقية فظهر المصلحون الاجتماعيون بالشرق متاثرين بالحياة الاروبية وظهر فيه الادباء تحت تاثير الثقافة الغربية ، ولكن لم يظهر من ذلك بافريقيا الشمالية الا مقلدون لزعماء الشرق المقلدين لاروبا .

ومهما تكن الاسباب الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي جعلت البلاد التونسية وبقية بلدان افريقيا الشمالية في عجز عن مسايرة الحياة وحتى عن مسايرة اخر الامم الشرقية العربية في اقتباس المدنية العصرية ، فمن المؤكد ان نجاحنا موقوف على تطورنا وتغيير حالتنا التي هي سبب تعاستنا وشقائنا وهو مدلول الاية الكريمة «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» فليس من المعقول ان نطلب من الله تغيير حالتنا مع محافظتنا على الطريقة التي نعيش عليها ، فالله يرشدنا الى ان طريق الخلاص هو تغيير تلك الحياة التي نحياها والتي اخذت على مر الدهور صورة التقديس .

والله يعلم ، سبحانه وتعالى ، هذا الضعف فينا ، وقد بعث نبيه بالهدى فانكر على قومه اتباع ما وجدوا عليه اباءهم ، وما ورثوه عن اسلافهم لان فيه ضعفهم وان عز عليهم تغييره ، ولم يقم هذا الدين الا بتبديل حياة العرب التي كانوا يعيشونها ولم يزد بذلك العرب الا

عزة ومجدا وقد انكر الاسلام عليهم اتباع طاعة السادات والكبراء «ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا . ربنا اتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً» (14) .

وهذان امران متلازمان فالكبراء والسادة في كل امة يستفيدون من حياتها ويريدون بقاء ميزاتهم ، ولذلك يؤيدون النظام القديم ، وكل اصلاح وكل ترق ، في التغيير والتبديل والتجديد ، لان الاصلاح والترقي يفرضان التغيير حتما . وقد اعتاد الكبراء ان يعارضوا في التغيير باسم الدين فتلك شنشنتهم الاخزمية التي شبوا وشابوا عليها في كل بلاد ، فالدين عندهم هو مصلحتهم وفائدتهم وما يضعون في جيوبهم وما يزدردون في بطونهم ، فوجب ان يقاومهم الشرع الذي جاء هدى للناس ولم يكن خاصا بفريق الاعيان بالطبقة الممتازة من الامة .

ان الناس في جملتهم يحبون كلمة الرقي والاصلاح ، ولكن يعارضون في كل تغيير ، فطورا يعارضون فيه باسم الدين ، ولم يكن الدين الا اتباع الحق ، وطورا باسم المصلحة العامة ، ولم تكن هذه المصلحة التي يدافعون عنها الا مصلحتهم الخاصة ، وطورا باسم السياسة التي تجب لمقاومة الاحتلال كان دعاة الجمود ليسوا اكبر انصاره لما يغدقه عليهم من النعم الضافية ، وجملة القول ان الحق عندهم في المنطق والخذلان في العمل .

وهذه المحافظة الفعلية لم يغن الترقي المرغوب فيه لفظيا فتيلا عن الامة في تحقيق حياتها السعيدة ، واحاط بها الفقر والذل ، وهيمن

---

(14) سورة الأحزاب ـ اية 66 و 67 .

3

عليها الاجنبي وانصاره الذين باعوا اليه ذممهم ، وكانت النتيجة الفعلية من هذه الحالة ان تكون هنا بالاخص في تونس مجتمعان غريبان عن بعضهما ، وصارت البلاد التونسية كانها مملكتان لا تتصل احداهما بالاخرى تبعدان عن بعضهما اشبارا قليلة ، تعيش احداهما في القرون الخالية ، وتعيش الاخرى في عصرها . ولكل منهما دواوين ومنشات واتباع واشياع ، وقد تعاشرتا في سكن واحد ، كما يتعاشر الجد مع حفيده تربطهما علائق خفيفة من النسب ولوازم حسن الجوار ، ويعترف الجد بعجزه عن ادارة شؤونه ، ويحتاج الحفيد لمال الجد ، فيداريه لاجله منتظرا به ساعته الاخيرة التي يكون فيها وارثه الوحيد ، الا ان الجد قد افتقر وضاعت ثروته ، واستغنى الحفيد في تلك الاثناء من حسن ادارته للثروة التي هو وكيل عنها فقط ، فبقي الجد عالة على الحفيد وعبئا ثقيلا عليه يداريه لمجرد العاطفة وخوفا من اقاويل الناس .

فللمجتمع القديم علماؤه وهم الشيوخ وكليته وهي الجامع الاعظم ومحكمته وهي الديوان والمجلس الشرعي وقضاة الافاق وجهازه الاقتصادي الماثل في الصناعات القديمة بالاسواق وامناء الحرف والفلاحين المسلمين المنتشرين في كافة انحاء المملكة ماداموا يحرثون ارضهم على النمط القديم ويستعملون في خدمتها الخماس او الرباع .

وللمجتمع الجديد علماؤه وهم خريجو الليسي والمحامون والاطباء والمهندسون والاساتذة ومحكمته وهي التريبونال الفرنسي والعدلية التونسية الزمنية بمجالس الافاق وله جهازه الاقتصادي ايضا كاملا من اشغال عمومية ومواني وسكك حديدية وطرقات

عريضة وسدود للري وقنوات للمياه السائغة وفلاحة باحدث الالات ومناجم للفوسفـــاط والحديد والرصاص وجميـــع المعادن وتجـــارة نافقة .

وتامل ذلك في نظام التعليم مثلا ، فقد احتفظ النظام القديم بجامع الزيتونة لدراسة الثقافة القديمة على الطرق القديمـــة كمـــا احتفظ بمعاهد التعليم الابتدائية وهي الكتاتيب القرانية ، وبمعاهد التعليم الثانوية وهي الدروس ببعض جوامع الافاق ، يلقى فيها شيء من النحو والصرف والفقه على الطلبة على نمط متواضع بالنسبة لما يلقى بين عرصات الجامع الاعظم بتونس . وابتعد هذا التعليم واهله عن كل ما يتعلق بالحياة العصرية . وراى فيه كفرا والحادا وخروجا عن الشريعة حتى ذهب القول ببعضهـــم لتكفير من يـــدرس العلـــوم الطبيعية كالقائل بتاثير الطبيعية . ولا ننسى الحملات العنيفة التي كان يقوم بها بعض الشيوخ على المدرسة الخلدونية التي ادخلـــت مبادىء العلوم الايجابية في برنامجها .

وازاء هذا التعليم الجامد كونت الحكومة تعليما اخر عصريـــا على احدث طراز واتم نظام تعطيه في مدارسها باللغـــة الفرنسيـــة ولكن لا يكاد خريجو هذه المدارس يحتفظون بصلة مهما وهنت مـــع الشعب .

ان هذا التعليم الاوروبي قوي في حقيقتـــه ، ولكن مهما ترقـــى فيه الانسان كبر عنده حب المادة وحب اللذائذ واعجب بمتع الحياة ، وفي مقابل ذلك ينســـى واجبه سريعـــا فنرى هـــؤلاء من خريجـــي الصوربون يتمسحون باذيال الشيوخ ويتتلمذون لهم ويذكرونهم امام العامة بكل اكبار حتى اذا ما خلوا بانفسهم وبالنفر القليل الـــذي

بتطارحون معه الحديث في صراحة حكوا من نوادر الايام عن هداة الانام ومصابيح الظلام ما دونه حديث عيسى بن هشام .

وكانت نتيجة هذه الحال فقدان الاتجاه في الشعب ، فلم يدر الناس ما يقصد بهم ، ولم يدركوا الغاية التي يجب ان يسعوا اليها .

فهل يجب ان يتمسكوا بالقديم ويطلبوا العيش في دائرة الحياة التي اعتادوها وورثوها عن جدودهم او يعترفوا بوجوب التطور ويسعوا في انقلاب عظيم يدخلونه على حياتهم في جميع الميادين ؟ ثم ما عسى ان يقصدوا من التطور والى اي غاية يسعون ؟ ولا اظن عاقلا يقول بوجوب الجمود على القديم ونحن قد صرنا به اضحوكة الامم وعار الشعوب ، واضعنا في المحافظة عليه عزتنا وكرامتنا وثروتنا وبلادنا ودولتنا ، وال بنا الامر الى السير حثيثا الى الانقراض بتاثير الفقر والمجاعة والامراض الفتاكة . الا ان المصيبة عندنا كما هي عند جميع الامم المتاخرة ، ان الناس يحبون التطور بالقول واذا طلب منهم ادنى تغيير لحياتهم قاوموه مدعين ان السبيل الى الاصلاح غير ذلك ، واذا قصد اصلاحهم من جهة اخرى كانت ايضا مخالفة لاهوائهم فلن يرضوا الا ان تقول معهم بالتطور قولا دون اي فعل .

على ان قوة المحافظة تتمثل في البلاد من جهات كثيرة . فزيادة على قوة الاستصحاب التي هي حجة اذا انعدم السبب لميل الانسان بطبعه لبذل اقل جهد ، وقداسة القديم التي تزداد حرمة في كل جيل جديد فان كل شيء في البلاد يؤيد القديم ، فالنظام السياسي مبني على احترام «الذاتية التونسية» وهي ماثلة في ذلك القديم ... ورجال الدين يؤيدون القديم لانهم ورثوا نظاما قديما ولان لهم منافع مادية كبرى في المحافظة عليه . والسلطة الحامية تؤيده ايضا لانها

مرتبطة معه بمواثيق وعهود قد وفى بها من جهته بتاييد نفوذها فلا يسعها ان تخالفه ولان مصلحتها في وجوده قويا معها في اذهان الشعب ·

ويؤيد القديم جملة من الشعب ايضا ، لان اللفيف وقد اضاع كل شيء مادي واضاع كرامته ، صار ينظر الى تراثه الادبي كتسلية له على ضياع ما فاته فلن يريد بعد ذلك ضياع اخر شيء من يده · وقد يظهر له ذلك القديم والمحافظة عليه هو تحقيق الجنة له في الاخرة وهي تسليته الوحيدة في حاجته وفقره بل وجوعه وعراه امام ما يكسب الناس من القصور الشامخة والاجنة الفيحاء والمراكب المترفة · فدعوته الى ترك هذه الاحلام المعسولة لحقائق ملموسة يراها بعيدة او تطلب جهدا مشتركا من الناس لا ثقة له في ان يقووا عليه تظهر له مساوية للدعوة الى ترك العصفور الذي بيده لاخذ العصافير الكثيرة المستقرة على الشجرة ·

وتوجد في البلاد مصالح كثيرة تؤيد القديم او يتحكم فيها رجال القديم ، وتلك المصالح تتحكم في الناس يخضعون لارادتها ، منها الاوقاف وهي كثيرة منتشرة بالمملكة ومنها التعليم العربي والتعليم الديني ومنها العائلة التونسية التي تتبع في احكامها محكمة الشيوخ ومنها ايضا المواريث التي تنظر فيها المحكمة المذكورة · فبذلك صار النظام القديم يملك ارزاقا كثيرة يصرفها لانصاره ويعيل بها من شاء وتلك حكمة كبيرة في بلاد فقيرة يمكن ان يموت فيها الانسان من الفاقة اذا لم يكن وارثا ولم يرض عنه النظام الموجود · وقل من الناس من يتخلص من المادة تخلصا يجعله حرا لان يقول جهرة الحقائق صريحة لهذا النظام واذا ظهر مثل هذا الفرد النادر فان

الشيوخ منه بالمرصاد فيكفرونه ويرمونه بكل نزغة من نزغات الشيطان حتى يفقد كل اعتبار لدى العامة ويرتاحوا من صوته الـذي يقـض مضجعهم ويجعلوه عبرة لمن تحدثه نفسه في مستقبل الازمـان ان يسلك مثل ذلك السبيل .

واذا اجتمعت المصالح والرجال على امر صالح او غير صـالح كان نجاحه محققا . فكذلك نجحت كل المشاريع التي يقوم بها الشيوخ والتي ليس فيها ذرة من مصلحة الشعب وامكن ان يصير الجمود قاعدة تقوم عليها البلاد ودستورا يتحكم في شؤونه .

وهذه الطائفة التي جعلت من اللغة اداة جامدة ومـن الفقـه احكاما لا تقبل ادنى تغيير ومن الخطب الجمعية سلسلة محفوظـة تعاد كل سنة ، وجعلت كسوتها ومشيتها وحديثها نمطا واحدا وامتنعت ان تتنازل عن شيء من كل ذلك ولو السبحة التي تداعبها في رمضان وصار الداعي الى تركها ممن «يعملون لتعطيل شعائر الدين متظاهرين بمقاومة البدع ولا غرض لهم في الحقيقة الا تعطيل ذكر الله» (15) قد جعلت ايضا الثروة التونسية وقفا عليهـا وعلى انصارهـا ، وجعلت التعليم الديني جامدا لا يناله ادنى تغيير ولو في اساليبه وجعلـت الوظائف الدينية وحتى الوظائف الزمنية تتوارث في عائلات معلومة معدودة من قبل وجعلت الصنائع على عرف جامد والتجارة محدودة في اسواق معلومة ، وجاءت ادارة الاثار على نمط الجمود الذي هو

---

(15) انظر المجلة الزيتونية . جزء 3 مجلد 1 ــ رمضان 1355 / 17 نوفمبر 1936 ص 102 و 103 بقلم الشيخ محمد المختار بن محمـود ، د ــ وعنـوان المقال : اشد الناس ضررا على الدين اعداؤه الذين يعملون ضده وهـم ينتسبون اليه ــ م ــ

القاعدة في الحياة التونسية العامة فجمد كل حجر في مكانه وامتنع ان تدهن باب بيتك ألا باللون الذي كان له في غابر القرون فضلا ان تبدله بشكل اخر واذا كانت له كوة على الشارع فعليك ان تحافظ عليها كاثر مقدس من اثار المدنية العربية ويمتنع عليك ان تجعلها نافذة كبيرة تملأ بيتك نورا وهواء وشمسا .

واذا تغير العالم وانقلبت كل المبادىء التي يسير عليها وحدث الاحتلال وجاء معه ليساكننا عدد كبير من الفرنسيين والايطاليين والمالطيين فامتلا بهم الجو ، واذا حدثت الحرب الكبرى وقلبت جغرافية العالم وقلبت نظامه راسا على عقب فان ذلك لا يمكن ان يغير فاطلة واحدة من فواصل المؤلفات الضخمة التي تدرس بالجامع الاعظم على التعبير الفرنسي ، واما على ما يجب من التعبير للشيوخ فان ذلك لا يمكن ان يزيد في كتبهم فاطلة واحدة لان كتبهم تكتب بلا فواصل كما لا يمكن ان يغير مشيتهم ولا أن يحركهم ادنى حركة زائدة عن الحركات المقررة المعروفة من قديم كما عرفت الحركات في الصلاة .

وهذا الجمود لديهم فخار يعد له النشء منذ الفطام (16)

وقد يظهر بادىء ذي بدء لمن كان غير متصل بالامم المتأخرة واسرار تاخرها أن هذا الموقف الذي يقفه الشيوخ بالاخص غريب على الاقل . فقد يفهم الانسان الاعتيادي وجود اناس لا يقبلون التطور مطلقا بشروط اولها : ان يكون التطور المذكور بدعة لم تجر في امم

(16) من قصيد : ظل الموت . للحداد وهو في اربعة وخمسين بيتا لم يسبق نشره ، وممضى بخطه بتاريخ 17 اوت 1932 – م –

اخرى وثانيها : ان يكون الشعب من ارقى الشعوب في المعمورة حتى يعتز بما عنده وثالثها : وهو اهمها ان لا يتورط المحافظون في تاييد تطور لا ينالهم او ينالهم في ميادين معينة . ولكن الواقع ان هؤلاء الشيوخ يريدون المحافظة على القديم رغما عن فساد الحالة وكون شعبهم قد انحط بالجمود الى اسفل درك وهم مع ذلك يؤيدون النظام الجديد ويستفيدون من تاييده وموقفهم في ذلك علاني لا يعترض عليه معترض ولو ان الامر على خلاف ذلك لكان مدعى للغرابة اولا ولكانت الامة من الامم الراقية ثانيا .

وتفسير موقف الشيوخ بسيط جدا ، فهو يتلخص في كلمة واحدة تحل بفضل الله كل المشاكل وتجيب عن كل الاعتراضات وهي القضاء والقدر فعندهم ان الله قد امتحن عباده بالسلطة الاجنبية ويجب الصبر على هذه الحالة الى أن ياتي الله بالفرج ويؤيدون هذا الكلام بجملة عبارات وامثال مثل : «دوام الحال من المحال» و «يوم لك ويوم عليك» وبعض منامات واحلام واقوال كيفما كانت تؤيد التسليم الى ان ياتي اليوم الموعود ، وقد توجه شيخ بعد الحرب الكبرى لجهة الجنوب وكان عليه ان يقاوم بنفوذه دعاية دولة اجنبية لها مطامع في البلاد فقابل رؤساء العشائر وقال لهم : «نشدوا مشومنا لا يجينا ما اشوم» (17) والشيوخ في ذلك لا يخدمون الا مصلحتهم الخاصة فهم طبقة قد افهمت الدولة الحامية انها لازمة لتاييد نفوذها واختلطت بالسلطة التونسية التي تعاقدت معها فرنسا وصارت طبقة

(17) مثل تونسي معناه : نتمسك بالشؤم المسلط علينا اتقاء لما هو اشام منه .

لازمة لنفوذ فرنسا في البلاد (18) واما الشعب التونسي فهو كما يدفع ثمن المحالفة بفرنسا يدفع ايضا ثمنها للشيوخ حلفائها فلفرنسا النفوذ المالي والاداري والقضائي وللشيوخ رواتبهم وعليهم ان يفسروا كل ذلك بقضاء الله وقدره . والانكى من ذلك ان فرنسا لو احتلت البلاد بدون واسطتهم وبدون ان تلتزم لهم بشيء لكنا نخاطب فرنسا مباشرة في الاصلاحات الواجب ادخالها على الحالة التونسية ولكن اذ كان الشيوخ طرفا في المعاهدة فقد اشترطوا المحافظة على نفوذهم واخذوا الشعب من طريق قضاء الله وقدره وهو مبدا ديني حرفوه عن موضعه لغاية في انفسهم كما سنبينه بعد .

ونتيجة ذلك عقيمة حتى على فرنسا التي وجدت فيهم في الساعة الاولى مؤازرة باتة مكنتها من اتمام الاحتلال في جو هادىء نسبيا . ولكن قد اضاع الشيوخ كل نفوذهم الان تقريبا وقد بقي الاحتلال يعاضدهم على البقاء في مراكزهم بينما قد كانوا يساندونه في الاستقرار واذا استمر هذا الحال فسيكون الشيوخ عبئا ثقيلا على الاحتلال حتى يلقيهم من ذراعيه او يجرفهم الشعب من بين يديه . (19)

---

(18) انظر تصريحات م . فيانو VIENOT في محالفة الشيوخ (تونس الفرنسية) La Tunisie Française عدد 17 ـ نوفمبر 1936 ، بعنوان :
La politique de la France vis-à-vis des populations indigènes du Maroc et de la Tunisie.

(19) نتيجة لكفاح الدرعي المتواصل قصد الاصلاح نرى بعضا من امانيه تتحقق وهو بقيد الحياة بعد ان شرع ينتقد مجلة المرافعات الشرعية ، وكذلك المحاكم الشرعية المنتصبة باسم الدين في مقالات عديدة كان نشرها ....

وبمجرد انتهاء العملية الجراحية الواقعة بالاحتلال قام النظام الجديد الذي كان يحس بصعوبة الاستقرار بتطمين النظام القديم فايده في جميع مظاهره بقوانين مضبوطة واخذ يبني الحياة الجديدة وهكذا اعترفا ببعضهما واخذا هدنة ليتعارفا .

ولم يجد النظام الجديد غضاضة في استمرار هذه الهدنة الى ما شاء الله فهو كلما احس بالحاجة لشيء الا حصل عليها من النظام القديم بل وجد فيه معاونا وحليفا يريد ان يقدم الخدمات كلما احتاج اليه وهو في ذاته يغضب ويسب ويلعن ولكن اذا كان وقت الحاجة

... بجريدة الصباح تحت عنوان «حول مجلة المرافعات الشرعية» تواصلت اسبوعيا بتواريخ تتراوح بين 26 مارس 1955 و 11 اوت 1956 وفي اخر مقال له وقد تم القضاء نهائيا على مجلة المرافعات والمحاكم الشرعية ، نظفر بهذه الملاحظات العابرة التي نوردها كاثبات لما ذكرنا : « ... ان الدين الاسلامي فيه الجوهر الذي لا سبيل الى تبديله او تغييره وفيه العرض الذي هو قابل للتغير والتبدل بمقتضى الحال وهذا راي المطحين المحققين في الامة العاملين على تقدمها وقد نادى الطاهر الحداد بهذا المبدا منذ نيف وعشرين سنة وايدناه في قوله هذا وناصرناه ...» الى ان يقول :

ان الاصلاح الجريء الذي قامت به الحكومة التونسية لاصلاح حقيقي ولم يكن من باب الترقيع المزوق الذي عهدناه في عصر الحماية فهو يجابه الواقع كما هو فاذا كانت الهيئة الشرعية المحترمة لم تبق صالحة لمسايرة الشعب فهي اما ان تزول او تلحق بالشعب اضرارا فامحة فلزم ان تضحي ولم يبق الا الاحتفاظ للدين بحرمته في زوالها فزالت المحكمة وزالت مجلة المرافعات الشرعية واحتفظ على جوهر الدين ولله الحمد من قبل ومن بعد » . – م –

اليه لا يتخلف عما يحدد له من العمل .

وبين هذين النظامين ضاع الشعب وافتقر وجهل فكيف حينئذ يكون خلاصه ؟

تلك هي المشكلة التي عالجها الحداد . ومن هنا تظهر الاهمية التي لعمله ، فليس الحداد بالذي يضع المشكلة التونسية على صورتها الظاهرية التي وضعتها بها الاحزاب في طلب اصلاحات في ميادين معينة بل هو يضع اصبعه بشدة على موضع الداء بالتدقيق .

واذا قلنا ان الشيوخ قد اضاعوا كل نفوذهم تقريبا فلسنا مبالغين وهل نفع الشيخ يوم ان قام يضرب حزبا سياسيا بمقال نشرته جريدة يومية تحت عنوان «فكرة حرة» انه لم يحصد من ذلك شيئا وسرعان ما غضب عليه الشعب لانه حاول مقاومة مطالب شعبية باسم الدين واراد ان يستخرج من القران فتوى بتاييد اصلاحات م . لوسيان سان التي اصدرها سنة 1922 .

وقد وعدت الجريدة بنشر اراء لشخصيات اخرى حول الاصلاحات المذكورة التي اعترف صاحبها بنقصانها فلم تفعل الى يومنا هذا ولا زلنا ننتظر اراء الشخصيات التي نوهت بها الجريدة الى يومنا هذا حيث قارب ظل تلك الاصلاحات التقلص ولم تصمت الجريدة كل هذا الصمت البليغ الا للغضب الذي نال الشعب من «الفكرة الحرة» .

وقد استفتى الشعب الشيوخ في مسالة التجنيس فلم يفتوا واستفتتهم الحكومة في امكان توبة المتجنس فافتوها بما شاءت ولكن الشعب قد افتى لنفسه في دينه وضرب بكلام مصابيح الظلام

غرض الحائط واعتمد على ضميره الذي يوحي اليه أنه لا يمكن أن يكون رجل من غير المسلمين على المسلمين (20) .

فهل تبع الشعب شيخ «الفكرة الحرة» او تبع شيوخ فتوى التجنيس ؟ .

واذا صار الشعب لا يتبع الشيوخ فلا ادري والله قيمة لهذه المشيخة التي تفرض عليه ولا ادري الى متى تتشبث فرنسا بتاييد نفوذ شيوخ قد ملهم شعبهم . ان المحالفات الدولية تبنى على مقدار ما لكل من القوة وبمجرد ما يفقد احد المتعاقدين العلة في كونه طرفا في العقد ينفسخ الاتفاق من نفسه ولكن فرنسا لم تجد لحد الان حليفا خيرا من الشيوخ في الامة فلم تفسخ معهم عقدا قديما رغما

---

(20) من الملاحظ وان الحكومة الفرنسية رغبت في افريل 1933 بواسطة الوزارة الكبرى باستفتاء المجلس الشرعي الاعلى بتونس وكان على قسمه الحنفي شيخ الاسلام محمد بن يوسف ، وعلى قسمه المالكي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي كان مديرا للجامع الاعظم وفروعه في نفس الحين وافتت اغلبية اعضاء القسمين بان التجنس لا يخرج المسلم عن دينه وان توبة المتجنس تقبل .

وكان لصدى هذه الفتوى تاثيرها ووقعها مما اثار العواطف ضد المستعمر ، وتحمس الوطنيون باعلان سخطهم وتبرئتهم من المتجنسين ورفضهم لدفن المتجنسين بالمقابر الاسلامية وقد اضرب طلاب الجامع الاعظم وفروعه عن الدروس واطلقوا اسم (من متطوعي عام التجنيس) على من خرج عن الاجماع وشارك في امتحان التطويع واحرز على شهادته في سنة 1933 .

وهكذا ونتيجة للاضطرابات الدامية التي وقعت ببنزرت وبالعاصمة والمنستير احدثت مقابر خاصة بالمتجنسين واعفاء الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من منصبه كمدير للجامع الاعظم وغلق ملف التجنيس نهائيا .

ولزيادة التعرف باسهاب على المشكل الموضوع يستحسن الرجوع الى كتاب «الشعب التونسي والتجنس» جمع ونشر الجيلاني الفلاح – تونس 1342 – 1924 – ونظفر في الكتاب بمقال للحداد تحت عنوان «التجنيس نكث للعهد» وقد سبق نشره بجريدة الامة – العدد 50 – 1924 – (المحقق)

عن ضياع نفوذهم الى ان تجد خيرا منهم او يجرفهم الشعب بما لا بقاء لهم بعده .

ورب رجل يعالج سكرات الموت لا يدري انه سيفارق الدار بعد لحظات ويغره من الدنيا تكشير انيابها الذي يفسره بالابتسام واذا نظرنا الى الحوادث العالمية التي حولنا وسرعة تطورنا وتطور الامم الشرقية التي لها تاثير على حياتنا الادبية والفكرية راينا ان سلطان الاكليروس الاسلامي قد قارب الزوال بتاتا في تلك الامم . فقد تخلصت منه تركيا بتاتا وتسير البلاد العربية على اثرها في ذاك وتونس لابد ان تلتحق بهم طال الزمان او قصر .

وقد كفر بعض الناس عندنا الاتراك لذلك ولكن لو تتبع مصر والشام والبلاد الاسلامية قاطبة هذا الراي لا نرى ان يجسر التونسيون على تكفير المسلمين في كل بلاد لخلاصهم من زعامة تلتصق بالدين قد اضرت بالمسلمين كثيرا . ولا ينفع فرنسا تمسكها بسلطة حلفائها كما لا ينفع فرنسا هؤلاء الشيوخ المتمسكين بها ولن يعادل ذلك حينئذ الا ان تريد فرنسا محالفة الخوارج او الشيعة وهي مذاهب قد انقرضت تقريبا وان تريد فرض شيوخ هذه المذاهب على التونسيين يراسونهم من الوجهة الدينية فليس ذلك الا محاولة المستحيل ، فكذلك الشيوخ اذا بقيت الدولة الحامية مؤيدة لهم بعد انقضاء نفوذهم . على ان هؤلاء الشيوخ عرضة في مهمة فرنسا التمدينية . واظن ان هذه المهمة تحتاج الى انقياد شعبي ليمكن تنفيذها ولم يكن الشيوخ ليخلقوا هذا الجو وليساعدوا على وجوده فاذا كانت فرنسا محتاجة لتبرير سلوكها امام العالم المتمدن فلن يكون ذلك بمحالفتها مع الرجعية وممثليها .

ولكن اذا تركت فرنسا هؤلاء الحلفاء وارادت الاعتماد على الشبيبة فهي واجدة من بينهم فريقا يؤيدها كالمشائخ فيما تريد بشرط ان تشبع نهمهم كالشيوخ وفريقا اخر يريد ان يتعاون مع فرنسا على النهوض بالبلاد ولكنه لا يتسامح في كل شيء ولا يوافق على كل شيء فهذا الفريق من التونسيين قد اعتبر مدة طويلة من اعداء فرنسا وقاومته السلطة وكان عليه ان يحصل على كل شيء بقوة جهاده وتضحيته ولما تبلغ هذه الشبيبة مدى بعيدا في وادي الجهاد والتضحية رغما عن العذاب الذي سلط على كثير منها فحملته بصبر وثبات ورباطة جاش . واذا كانت فرنسا وبالاخص فرنسا الحرة عازمة على القيام بمهمتها التمدينية في البلاد فلا شك انها ستضع حدا لسياسة الاستثمار التي كانت عقبة كؤودا في سبيل الاصلاح وحالت دون ان تتبع هنا سياسة انسانية وكل ذلك يتنافى وهذه المحالفة المنعقدة بين الدولة الحامية ورجال العهد القديم .

واذا كان لنا ان نتعشم في المستقبل خيرا فلا نرى وسيلة لذلك الا في الرجوع عن هذه السياسة التي تعطل كل رقي بما تفيد به الشعب التونسي من الحقوق السياسية من جهة وعدم المحافظة على العادات والتقاليد البالية التي «تتمثل فيها» القومية التونسية زعما من جهة اخرى .

ولن يكون فصم عرى هذا الاتفاق الا من جهة فرنسا لان الشيوخ وقد اضاعوا نفوذهم على الشعب لا يفكرون في خسران المزايا التي ينتفعون بها من المعاهد ولكن فرنسا يمكن ان تطرحهم عنها الان لما يدعوها اليه واجبها وان لم تفعل فستضطر لطرحهم

عندما يبقون افواها فارغة تطلب حشوها من المرتبات والمنح من دون منفعة .

ثم ان سقوط الشيوخ سيضع امام الامة التونسية مشكلة جديدة هي قيادتها الروحية . وهذه القيادة تفرض مبادىء جديـدة تسيـر عليها الامة كما انه لا تتخالف مع ماضيهـا وتفـرض ايضا رجـالا يتولون هذه القيادةوقد ظهر في مصر وغيرها من البلاد الشرقية من المصلحين الاجتماعيين الدينيين امثال الشيخ محمد عبده واستاذه الشيخ جمال الديـن الافغاني وكـان لهم تاثير كبيـر في الذهنيـة الشرقية وتطبيق الحياة العصرية على الدين في جوهـره وتصفيـة الدين مما الصق به من الخرافات في مختلف العصـور ولكن قلمـا كان تاثير ذلك على الذهنية الافريقية وان كان لهؤلاء الرجال مفعول لا ينكر فيبعض الاوساط التونسية العلمية ، ولميظهر عندنا مثلهم او ما يقاربهم فاضطر الناس الى اتباع الزعامة السياسية وحدها اذ عدموا مرشدا روحيا حقيقيا وهذه السياسة بلاء في نفس ميدانها فـاذا جاوزته الى ميادين اخرى فقد عم بلاؤها خصوصا وقد قصر في بعض الاحيان نظر المتولين للزعامة السياسية وداخلتهم الاغراض الشخصية فقاموا يؤيدون الشيوخ المنادين بمـا يقضي لباناتهم (21) ويشفـي غلتهم فكانت الطامة الكبرى على الفكر ويا ليت شعـري اذا كـان رجال سياسة المعارضة على ما يدعون يؤيدون شيوخـا هم دعامـة الاحتلال والجمود فكيف يرجى صلاح هذا الشعب وكيف يهتدي الى طريق الرقي .

---

(21) اللبانة : الحاجة من غير فاقة ، تقول «قضيت لبانتي» ج لبان ولبانات (قاموس) ـ م ـ

على ان هذه السياسة التونسية لم تزل في دور الطفولة وقد يتهمها الفرنسيون بانها عمل عدائي لهم ليس فيه ذرة من قصد الاصلاح . وصرح بذلك مرارا م . بيروتون المقيم السابق عندما يضطر للاعتذار عن سياسة العنف التي سلكها ولم تحاول تلك الحركة السياسية ولو بعد ذلك ان تضع لنفسها اسسا اجتماعية توافق روح العصر تسير على نورها وتطالب بها ولو تبريرا لنفسها من الوصمة التي الصقهابهامضطهدها. ورأينا احدالزعماء السياسيينبعدرجوعهمن المنفى وهو حامل اعلى الشهادات العلمية يصرح علنا في جمع غفير من الناس عقدته جمعية قدماء الصادقية بقصر الجمعيات الفرنسية اواخر رمضان 1355 في مسالة المراة بما ياتي تلخيصه :

«ان وظيفة المراة مغايرة لوظيفة الرجل فاذا بحثنا عن المثل الاعلى في الانسان فيجب ان نبحث عن مثل اعلى للرجل ومثل اعلى للمراة والذي يهمنا الان هو الاخير ونحن نجد ان هذا المثل الاعلى يمكن ان يتصور لنا في احد ثلاثة :

1 ـ المراة الاروبية .
2 ـ المراة الشرقية القديمة في عصر مجدها ورقيها .
3 ـ المراة الشرقية الحاضرة في عصر التدهور والسقوط .

ثم قال الخطيب :

«لا ارى اتباع المراة الاروبية التي نعترف لها بالعلم والفكر ونعترف لها بالمشاركة العتيدة في تكوين المدنية العصرية العظيمة والقاسية في ان واحد ، وعليه فلا نقبل ان تصير مثالا اعلى للمراة

المسلمة . ولا يمكن ان نجد هذا المثل الاعلى في المـراة الشرقيـة الحاضرة وهي حالة انحطاط نريد تغييرها .

وبعد ان اعترف بالفضل «لشيخنا سيدي» المختار بن محمـود وهو اصغر منه سنا واقل علما قال «انه لم يبق الا ان تكون المـراة الشرقية القديمة هي المثل الاعلى للمراة التونسية الحاضرة وهـي التي يجب السعي في التشبه بها والوصول الى درجتها ..» انتهى .

فهذا الموقف السلبي الذي تقفه الحركة التونسية من الوجهة الاجتماعية كان وسيكون الى ان تغير الشبيبة موقفها الذي هو حجـر عثـرة في سبيل الرقي والسبب الوحيد تقريبا في عقم الحركة رغما عـن التضحيات العديدة التي قدمتها الشبيبة على مذبح الوطن .

وقد كنت اود عدم التعليق على كلام الخطيب لظهور كل شيء فيه ولكن لا بد من بيان وجه الاتيان به ووجه الحجة منه لان كثيرا من اخواننا الذين يطالعون الكتب لا يفهمون منها الا ما يقال لهـم جهرة فالقارىء دليل الكاتب ومحاولتنا هي افهام اكبر عدد ممكن من الذين يطلبون الفهم من هذه الاشكال التي نرصفها لهم ويتبـع بعضها بعضا الى ما لا حد له .

فقد عجبنا لزعيم سياسي يعترف بمشاركة المـراة الاوروبيـة مشاركة عتيدة في تكوين المدنية ثم يعرض عن اتخاذها مثلا اعلى للمراة المسلمة .

وهل هو يعرض بذلك عن المدنية نفسها او يعرض عن مشاركة المراة فيها ليس الا ؟

وهل يمكن ان يغفل عنصر المراة الان في المدنية العصرية مع

تمسكه بالمدنية ؟

فهل اذا اعرض عن اتخاذ المراة الاروبية الحاضرة مثالا اعلى يرشدنا الى ما هو ارقى منها في المدنية والاخلاق ؟

انه يرشدنا في ذلك الى المراة المسلمة القديمة ولا شك ان السيد الطاهر صفر لا يعلم من امر هذه المراة المسلمة القديمة اكثر مني ومنك وهو على كل حال لم يبين مزيتها على الانسانية كما بين بقوة غريبة مزية المراة الاوروبية التي اعرض عنها واذا استشرنا ما نعلم من امر هذه المراة المسلمة القديمة فانا نجد ان بعض العائلات الارستقراطية كانت بذلت عناية شريفة في تعليم بعض نسائها كما اعتنى المقينون بتعليم الغانيات الشعر والالحان للحاجة التجارية التي يسعون اليها . وقد كان هذا التعليم غير منطبق مع حاجة المراة ووظيفتها التي يتحدث عنها الخطيب فاذا حكى لنا التاريخ عن مراة تحفظ المدونة ـ وقد ذكرت في الحفل كمثال اعلى ـ فلا يمكن ان نستنتج ما يريد السيد الطاهر صفر الا ان تكون مدونة الامام مالك في تدبير المنزل او التربية او حفظ الصحة .

وكل ما ينتقد الخطيب على المراة الاروبية هو قساوة المدنية الاروبية ولكن اذا كانت اروبا عاجزة عن حل مشكلها في ذلك فهل يحلها هو بالرجوع بالمراة المسلمة الى عشرات القرون في التاريخ وهو امر مستحيل اجتماعيا .

ولا نظن ان السيد الطاهر صفر يغلط في تقدير الموقف من الوجهة الاجتماعية الى حد ان يطلب المستحيل جادا . ولكن اتفق القوم على بعض الصفات ينعتون بها المدنية الاروبية من فاجرة

وقاسية ومادية .. وما اشبه ذلك . وتعجبهم المدنية العربية لانهم ينتسبون اليها ولانها فخرهم ولم ير السيد الطاهر صفر مصلحة في تحديد الحق والباطل من هذه العبارات لانه يعتبر نفسه زعيما سياسيا لا غير ويترك المسائل الاجتماعية لغيره من امثال الشيخ المختار بن محمود الذي يتتلمذ له .

ولم تخف على الحداد امثال هذه المواقف وهو الذي راى العلل التونسية فوصفها سلفا :

نحن شبان عصرنا ما لقينا العيش الا في ساحة البهتان

... انت يا شيخ باب كنز عظيم	منه تطغى الجيوب بالرنان
هاك اقلامنا عسانا نلاقي	مبتغانا في قابل الازمان
«...آ... عرفنا الطريق بعد انخذال	لا تنال المنى بغير احتيال
ننصر الدين كالشيوخ ونحيي	مجد اسلافنا بفعل الخيال
زخرف القول يملك الشعب دهرا	دون ما حاجة الى الافعال
فلماذا لا نحكم الرصد نلقى	فيه ما نشتهي من الامال
واذا جاء غاضب او عذول	فلنبادر بصرعه في الحال (22)

فهذه القيادة الروحية المفقودة وعدم وجود مبادىء صحيحة فيها كانت سببا في وهن الشعب ومن المحتمل جدا انها اكبر ادوائه التي يقاسيها منذ قرون بل ربما كانت الداء الوحيد الذي ترجع اليه بقية الادواء .

ومن الجلي ان اول واجب اذا كان المراد اصلاح الشعب هو

---

(22) من قصيد : ضحايا الماضي ، وقد سبق التعليق عن هذا القصيد .

الالتفات الى هذه المسالة الروحية ليمكن ان يشاد البناء صحيحا من اساسه .

ان معرفة الغاية التي نسير اليها امر اولي في النهضة المراد حدوثها في الشعب وانه لتتنازعنا طرائق مختلفة لم ندر الى الان ما نختاره منها وقد عطلت الحيرة سيرنا كما لو كنا راضين بحالتنا تماما .

ولزيادة البيان نضرب مثلا لذلك بالنهضة الاسلامية فاول ما قامت النهضة المذكورة كان العرب في غفلة عن المجد والعزة فقومت حالتهم الروحية وكونت لهم المبادىء التي يجب ان يسيروا عليها في حياتهم والاسس التي يقيمون عليها مكانتهم في العالم . وبمجرد ما تم هذا العمل الاولي الواجب للنهضة كانت النهضة الاسلامية عامة في جميع الميادين المادية والادبية وشملت العلم والمعرفة والفلسفة وحدثت بها مدنية كبرى خلفت مدنيات القرون الغابرة من الفرس والروم والاغريق وكانت الصلة بين تلك المدنيات والمدنية العصرية . فاذا كان المراد خلق شيء عظيم يبقى على مر السنين ويكون له من الاثر الفعال في التاريخ المستقبل ما كان لاكبر الحركات التي خلقت الانسانية فالواجب بداية البنيان من الاساس ، وذلك بتقدير ما يجب لحل مشكلة القيادة الروحية في الشعب ، وما دام المحافظون على رواتبهم معتبرين اهلا لهذه القيادة فالاجدر هو نفض الايدي من هذا الاصلاح والياس من هذا الشعب الذي له في الحقيقة مزايا كبيرة يمكن ان تبهر العالم يوما من الايام ولكن ماذا تنفع كل تلك المزايا اذا كان زمام قيادته بايدي اناس همهم منه ما يضحون بجيوبهم من بيعه قطعة بعد قطعة . وهذه المسالة الروحية هي مسالة

الدين وكثيرا ما اعتبر هذا الدين معطلا لسير الامة الاسلامية وعائقا لها عن مسايرة التطور واذا فسرنا دين امة باعتقادها فلا شك ان الاعتقاد المسيطر على الناس يعرقل سيرهم نحو الرقي واما اذا اريد بالدين ما ارتضاه الله لنا من دين الاسلام فان هذا الدين براء من هذه التهمة :

«وقد رايت بعين اليقين ان الاسلام بريء من تهمة تعطيله الاصلاح ، بل هو دينه القويم ومنبعه الذي لا ينضب وما كان انهيار صرحنا الا من اوهام اعتقدناها وعادات مهلكة وفظيعة حكمناها في رقابنا ...» (23)

فموقف الحداد في هذه المسالة كان موقف الناقد للزعامة الروحية في البلاد فهو يرى تخلف رجال الدين عن مهمتهم ويبين واجبهم في الاصلاح اللازم للمجتمع بما لا يتخالف مع الاسلام .

ومع ان الحداد من رجال الدين لتخرجه من الجامع الاعظم فهو لم يطلب هذه الزعامة لنفسه ولا حاولها ولا كان يرضى ان تسند اليه فهو لم يضع نفسه الا موضع الناقد لها الثائر عليها ، المطلح اخللها الذي «رضي به علماؤنا لنا وجمدوا عليه وربما قالوا انه الدين بعينه . فهل نبقى دائما في ريب من اسباب الخيبة في بيوتنا وضياع نسائنا واندحار ابنائنا الذين يولدون في هذا المحيط المتصدع بفجائعه وانكاده . ؟ الا تعسا لعلمائنا وتعسا لنا معهم ما دمنا راضين بما رضوه لنا من الموت والاندحار» (24) .

---

(23) امراتنا في الشريعة والمجتمع ص - 4 -

أن الحداد لا يتردد طويلا في اختيار الطريق الذي يؤدي بنا الى السعادة فلا امل في السعي لتقهقر النظام الجديد فقد غزا التونسيين وغيرهم من الامم الشرقية ولم يغلب ولم يقهر وكان ان تبعته الامم او يلحقها الفناء والدمار او تقضي حياتها في البؤس والشقاء .

ثم ان هذا النظام القديم الذي يراد به ضرب النظام الجديد يدور بما قصد الرجوع اليه هو نظام يحتوي على عيوب ونقائص يجمل بالشعب تركها لما يحتوي عليه النظام الجديد من المحامد فالخلطة التي حصلت لنا الان من المدنية العصرية قد اثبتت تفوقها وحيويتها وافضليتها بالنسبة للحالة التي نعيش عليها .

ومن هنا قد تبين الحداد انه لا يخلق شيئا جديدا في المدنية ولا يخترع شكلا جديدا من اشكالها وانما يوصي بشيء واحد هي اقتباس التونسيين لها كابلغ مما اقتبسها الشرق العربي واعمق مما اقتبسها الاتراك بعد تحريرهم .

اي نعم ان الشرق العربي لما اقتبس المدنية الغربية قد كان عمله ايضا كثيرا في العد قليلا في الروح فهو في ان واحد يريد المحافظة ويريد التطور وكثير من انصاف الفلاسفة عندنا يريدون الاصلاح ولا يقبلون ادنى تغيير . ومعاهدة الحماية تقصد الى تمدين البلاد المحتلة كغاية لها وتصرح بالمحافظة على الانظمة والتقاليد التونسية فلم يكن في ذلك روح عامة ولا اتجاه عام في قبول المدنية جملة بل ان ذلك يكبح كثيرا الرغبة في الاصلاحات الجزئية نفسها

---

(24) امراتنا في الشريعة والمجتمع ص – 42 –

وذلك ما قيد الشرق العربي في العصور المتاخرة عن اللحاق بالأمم المتمدنة .

واما الاتراك فقد قبلوا المدنية الغربية في جملتها وساروا معها سيرا حثيثا واكتسبوا روح الرقي الكامنة فيها وقبلوا الاصلاح بجميع نتائجه وتغيير حالتهم بما تقتضيه روح العصر وانكروا في ذلك ذاتهم ونبذوا تاريخهم وسلفهم وقد كانوا محقين الى درجة بعيدة في عملهم وقد اكتسبوا بذلك قوة وعزة ونالوا استقلالهم غير منقوص الا انه - لولا مقتضيات الثورة - لربما اخذ عنهم هذا القطع لماض لم يكن كل ما فيه خبيثا . وقد يسير الحداد مع الاتراك في انكارهم لكثير من الماضي واعتباره قذارة في تاريخ الامة يجب ان تتخلص منه ، ولكن لا يوافقهم على قطع الصلة بالماضي قطعا نهائيا وبالاخص في مسالة الدين وان كان يتجه بكليته لقبول المدنية الغربية كضرورة من ضرورات هذا العصر ولما امتازت به من اشتمالها على انظمة شعبية ولما تحققه من السعادة البشرية وكمرحلة من جملة مراحل الانسانية في سفرها الطويل يرجو بعدها ان يجد الانسان نظاما اكمل واكفل لسعادته .

ان التشريع الاسلامي لا يتعلق الا بالمسائل القضائية اي بما يمكن ان يعرض الناس في علائقهم الشخصية من الخلاف واوجه الفصل فيه . كما يبحث في علم الحلال والحرام وهو في هذا اقرب للاخلاق منه الى التشريع . واما حماية بيضة الاسلام واتخاذ الاحتياطات السياسية واتخاذ قواعد عامة وقوانين اجتماعية كانظمة للتعليم والثقافة وللصحة العامة ولتسهيل الزواج والعمران وتنشيط الزراعة والتجارة والصناعة وايجاد الطرقات والجسور

والمحافظة على الامن وعلائق الامة الاسلامية بالامم الاجنبية فكل ذلك خارج عن التشريع وموكول للامام العدل ويكتفي الفقهاء عن كل حكم في جميع ذلك عندما يقررون :

واجب نصب امام عدل | بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
الا بكفر فانبذن عهده | فالله يكفينا اذاه وحده
بغير هذا لا يباح صرفه | وليس يعزل ان ازيل وصفه (25)

وما دام المسلمون يقصرون فهم التشريع على القواعد العامة التي تفصل بها الخصومات ولا يشملون فيها تلك المصالح فمن المعقول ان يجمدوا على القوانين التي سنتها لهم الاجيال السالفة ولن يطلبوا ايضا ايجاد هيئة للتشريع تعبر عن رغبة المجموع وقد كان ذلك ميدانا متسعا لطغاة الملوك ان ينفذوا شهواتهم في حظوظ الشعوب الاسلامية ويعبثوا عبثهم الذي حكى التاريخ اقله وكان وسيكون وسيلة ينفذ منها الاستعمار الى احشاء الامة الاسلامية يتحكم في حظوظها مؤيدا في ذلك بالعلماء كما كان ملوك الاسلام مؤيدين فيهم في شهواتهم .

شعرهم مثل نثرهم في التغني | بملوك جادوا ببذل الكثير (26)

واذا نظرنا الى هذا التشريع الذي بينا نقصانه عن كفاية الامة الاسلامية في حاجاتها الاقتصادية والاجتماعية من حيث تكونه

---

(25) الابيات من «جوهرة التوحيد» للامام ابراهيم اللقاني مطبعة الشريف 15 نهج المبزع ـ تونس ـ بدون تاريخ ـ مع الملاحظ وان للجوهرة شروحا عديدة وطبعات مختلفة ـ م ـ

(26) من قصيد «ضحايا الماضي» للحداد .

وطرائق البحث عند العلماء الذين شاركوا في ايجاده تبين لنا انه تولد من وجه عقيم لا يكفل حاجة الامة ايضا لانه ناتج عن الابحاث اللفظية التي عزم بها الشيوخ وقطع النظر بتاتا عن مصلحة الامة التي لا تظهر الا بالبحث عن حالتها الاقتصادية والاجتماعية .

نعم ان من يفتح احد كتب اصول الفقه كجمع الجوامع مثلا يبقى مبهوتا لما يجد من المباحث اللفظية في كتاب يحث عن اصول الفقه . فقد اراد الفقهاء أن يضعوا قواعد لفهم اللغة ولكن ان مكان تلك القواعد الكتب اللغوية . ان اللفظة الواحدة قد تفسر بمعان مختلفة بحسب الظروف التي قيلت فيها وبحسب الاغراض التي تكون لقائلها كما ان استعداد السامع لفهمها يجعل لها معاني جديدة كامنة بين حروفها فقواعد اللغة لا تفهمنا المقصود من اللفظ وانما تهيؤنا لفهم اللفظ واكبر ما اضاع فقهاءنا هو مباحثهم اللفظية فاطعين النظر عن الروح العامة التي للشريعة الاسلامية وهذه الروح السامية يجدها الحداد في قول النبيء صلعم «بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» .

فهذا عنده الروح الذي احتواه الاسلام والذي جاء من اجله وهو الخالد فيه .

«وتضطر هذه الروح في عامة الاحوال ان تساير بقدر الضرورة استعدادات الانسان واحواله الناقصة في بروز اثارها في التربية والتشريع ثم تاخذ في الوضوح بالتدريج الى بلوغ مستواها عند نضوج الانسان ...» (27) .

---

(27) امراتنا في الشريعة والمجتمع ص 7 . (د)

ولو ان فقهاءنا اكتفوا بذلك لكان في الامر لطف ولكنهم اخذوا يطبقون تلك المباحث اللفظية على اقوال الفقهاء الذين سبقوهم واخذوا يستنبطون منهم احكاما شرعية كما كان هؤلاء يستخرجون الاحكام من القران والحديث (28) .

ونريد ان نذكر هنا مثلا من هذه الابحاث اللفظية في اقوال الفقهاء المتاخرين التي صاروا فيها تبعا لاقوال الفقهاء المتقدمين وتركوا الاستنباط من الكتاب المبين ومن الاحاديث الشريفة قال في المعيار :

«وسئل سيدي ابي عبد الله بن مرزوق عما ذكر عن ابن عرفة في مختصره عن المازري انه قال :

«لا نص في جنب لا يجد الماء الا في مسجد» . انظر هذا . قد يقال ان ماخذ المسالة قريب . وبيانه ان هذا جنب عاجز عن الماء . وكل عاجز عنه يتيمم . اما عجزه عنه خارج المسجد فحسي ، واما عجزه عن ماء المسجد فحكي والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فاذا ثبت بهذا الدليل انه من اهل التيمم ليستبيح به كل شيء منعته الجنابة ولا يقال انه اذا تيمم لدخول المسجد صار واجدا للماء فيبطل تيممه فيقع في محذور الكينونة في المسجد جنبا غير متيمم فيمنع من الدخول بالتيمم لاجل هذا ونمنع ان وجود الماء مستقل بالابطال بل الوصف المبطل مركب من الوجود والقدرة على الاستعمال وواضح انه غير قادر على الاستعمال في المسجد فانظروا هذا البحث وما عندكم فيه ؟

---

(28) المعيار المعرب جزء 1 — ص 43 وما بعدها . (د)

فاجـــاب ...

واليك تمام ما ينشا من تجاذب هذين الاطليـن اياهما واللـه الموفق بفضله .

ان الشيوخ لم تكفهم المادة من القران والحديث لاستخـراج جميع الاحكام الشرعية وتفصيلاتها لان القران اكثر ما يحتوي على روح الشرع «وكان من اياته ان تنتظر الحوادث لتنزل عليها وبذلك كانت شريعته نتيجة ما في الحياة من تطور لا انها فصول وضعت من قبل لحمل الحياة على قبولها» (29) .

ومن جهة اخرى فان الشيـوخ قد ارادوا بوضعهـم القـران والحديث في منزلة اسمى عن الفهم وهما هدي الله الـذي انزلـه للناس وكلام نبيه الذي خاطب به امته ، قد ارادوا بذلك ان يفصلوا بين الله وشعبه وبين رسول الله وامته ويجعلوا انفسهـم واسطـة لازمة بينهما .

«الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هـدى للمتقين الذين يؤمنـون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما زرقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون» (30) .

واذا لم يكن القران انزل لهدينا ويجب ان نفهمه لنهتدي الـى الصراط المستقيم افهل يكون انزل ليقرا في الجنائـز على الامـوات

---

(29) امراتنا ـ ص ٠ 6 ـ (د)

(30) قران كريم ٠ سورة البقرة ٠ الايات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ (م)

بينما الشيوخ في المقاصير بديار الماتم على الفرش الوثيرة يتنابزون بالالقاب وبايديهم السبح يداعبونها ويتظاهرون بها بالتقوى .

واذا ارادوا ان يفصلوا بين الله وشعبه جعلوا من اقوال من تقدمهم مادة يتباحثون في الفاظها ويتفهمونها في عبارتها غير معيرين لحياة الامة الاسلامية وحالتها اي اعتبار .

وبهذا السلوك ضاعت الشريعة الاسلامية في روحها وضاع المسلمون في مصالحهم .

وسقطت اخلاق المسلمين الى الحضيض حتى صارت الشريعة العوبة في يد القضاة يحكمون بما يطلبه المتقاضون من المنافع المؤيدة بالدرهم والدينار .

وليس يمكن فهم الدين على حقيقته الا بفهم عصره وفهم روحه السامية وبذلك يمكننا ان نجعل تلك الالفاظ دليلا على الروح ولا نتقيد في مصلحة المسلمين بلفظ الشارع اذا كان المراد تحقيق حق يتفق مع روح الاسلام .

وهذا ما عبر عنه الحداد في التمهيد الذي صدر به القسم التشريعي من كتاب «امراتنا» .

وبهذا المبدا ينفتح امامنا باب عظيم من الاجتهاد يرمي لتحوير الشريعة بما يتفق وروح العصر ولا يتخالف مع المبادىء العليا التي جاء الاسلام لها .

وفي هذا التمهيد وضع المؤلف طابعا لمعرفة ما جاء له الاسلاموبذلك

يكون خالدا بخلود الدين وما جاء الاسلام بتقريره أو فرضه من الاحكام التي تتغير بتغير الزمان والمكان وحالة المسلمين الاجتماعية والاقتصادية وما يطرا عليهم من القوة والضعف .

ولنضرب لذلك مثلا : حالة الاسلام اليوم ، فقد كان التشريع الاسلامي تشريعا للقوة ، وبيد المسلمين الدولة ، وهم احرار في ديارهم كما ولدتهم امهاتهم لا يخضعون لغيرهم فكان هذا التشريع مراة لتلك القوة والغلبة ، فقد اباح الاسلام تسامحا منه لاهل الاديان الاخرى ان يحكموا انفسهم مهما كانت قضاياهم لا تشمل احدا من المسلمين وابقى لهم هذا الحق الى الابد تقريبا دون ان يقصد في يوم من الايام ان يستجلبهم لمحكمته .

وانقلبت الدوائر فاذا هو اليوم في كثير من البلدان متسامح في وجوده متضايق به في حكم المسلمين خاصة واذا ما شملت القضية اجنبيا استجلبتها المحكمة الاجنبية . وقد يتخاصم هنا بتونس الجزائري المسلم مع التونسي المسلم في زواج مثلا فتجلب النازلة امام المحكمة الفرنسية تحكم على مقتضى سيدي خليل وشرط القاضي ان يكون مسلما ، فقد صار التشريع الاسلامي هنا على غير مبادىء الاسلام وصار خاضعا لغيره مسيطرا عليه وصار الى الضعف بعد ان كان موضوعا للقوة .

ان السلطة القضائية خاضعة للسلطة التشريعية وليس من الممكن ان يطلب من القاضي الشرعي الان ان يحكم على مقتضى الدين ويتعاطى فصل النوازل التي هي من خصائص محاكم اخرى وبذلك يتعطل حكم من احكام الشريعة الاسلامية ويبقى حق واجب السلطة

السياسية الاسلامية في البلاد ان تحصل على امتداد نظر الشرع العزيز لما يجب ان يكون شرعا من نظره .

انه يجب ان نسلم بضعفنا اذا كنا ضعفاء ولكن لا يمنعنا ذلك ان نطلب القوة ونسعى في اكتسابها .

وهناك مثال اخر جلي (31) : ان الحق الجزائي الاسلامي يجعل التعازير بيد القاضي لا يحتاج في تطبيقها لسابقية نص ومن الذي يؤسف له في الشرائع العصرية الجزائية ان القاضي مغلول اليدين لعقاب سوء النية اذا كانت في فعل غير منصوص على عقاب فاعله بنص سابق الوضع . ولكن الحرية التي للقاضي الشرعي في هذا العقاب يبررها ضمانات في شخصه من النزاهة عن الغرض وحسن تقدير للامور وفهم للبشر في الدواعي التي تدعوهم الى سلوك معين من الفعل . واذا عدمنا امثال هؤلاء القضاة الذين بقوا عندنا يتبرك بهم كسيدي ابن نفيسة وسيدي ابن زياد فهل يمكن في ظروف مثل هذه ان نضع في يد القضاة الشرعيين سلطة خطيرة مثل تلك . أو ليس غرض الشارع تحقيق العدل قبل كل شيء فاذا كان من اسباب تحقيقه ان لا يعاقب انسان الا بنص فهل يكون مخالفا للشرع ان نضع قائمة شاملة للافعال الموجبة للعقاب خصوصا اذا نظرنا لما يتطلبه المسلمون اليوم من الحرية في افعالهم واذا نظرنا الى وجود محكمة اخرى بالبلاد لا تعاقب الا على هذا الوجه ؟

ومثال اخر نقتبسه من المؤلف نفسه في طلاق الثلاث ، فعدم مراعاة روح الاسلام ادى بفقهاء المسلمين لعملية التحليل وادى

---

(31) يربط هذا المثال بمسالة قيمة البينات في الشريعة الاسلامية وان القاضي اسير البينة فبينهما تناقض . (د)

بهم من جهة اخرى للقول بصحة طلاق الثلاث في كلمة واحدة ومرة واحدة . فاذا كان هؤلاء الفقهاء يريدون الرافة بالزوجين «ان يحرما من سعادة فرطا فيها فما عليهم الا ان يعدوا طلاق الثلاث في كلمة واحدة طلقة واحدة» (32) كما قال تعالى الطلاق مرتان (32') وليس مرة واحدة يتلفظ فيها الرجل بالثلاث . اما الالتجاء الى تحوير الايات بما يسلبها معناها بانزال الشدة محل الرافة وانزال الرافة محل الشدة فذلك مناف لقصد الشارع من تاديب غير المتادبين وخدمة وضعية ينزل اليها كثير من رجال الشرع العزيز تحقيقا لبعض المنافع البشرية قد نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «لعن الله المحلل والمحلل له» .

ان قطع النظر في تقرير الاحكام الشرعية عن الواقع وحالة المسلمين الاجتماعية والتمسك باللفظ تمسكا يكاد يكون تعصبا يؤيدي الى مثل ذلك التناقض ويؤدي الى اكثر منه في فساد حالة المسلمين وقد فهم الفقهاء ، اذا استثنينا الظاهرية وهم القائلون بظاهر اللفظ ، في كثير من الاحوال وجوب حمل اللفظ على غير ظاهره وتاويله في كثير من الاحيان الا انهم في تاويلاتهم كثيرا ما يتعسفون — وليس مذهب الظاهرية الا رجعة في تعسفاتهم ولكن ظهر بسهولة ان حمل اللفظ على ظاهره دائما تعسف شديد قد يؤدي الى احكام غريبة مثال ذلك اباحة الزواج بتسع نسوة لقول الله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» وجملة ذلك تسع نسوة ومن ذلك صيام رمضان مرة واحدة لقوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» وذلك امر والامر لا يقتضي

(32) امراتنا — ص 41 — (د)

(32') راجع قوله تعالى : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ... » الاية 229 — سورة البقرة — م —

التكرار ومن ذلك ايضا وجوب الصيام الى العشاء لا الى المغرب لقوله تعالى «ثم اتموا الصيام الى الليل» والمغرب لم يكن ليلا . وتلك كلها احكام تخالف العمل الذي عليه السلف من المسلمين الذين شهدوا النبي ــ صلعم ــ ولذلك لم يقل بظاهر اللفظ غيرهم . الا ان القائلين بالتاويل قد تعسفوا فيه ايضا وصار الاستنباط في كثير من الاحيان رهن رغبتهم في قضاء حاجة او شهوة لذي سلطة او مال ولو دخل بذلك على المسلمين ضعف في حالتهم الاجتماعية وتسبب ذلك في خيبة نظامهم وادى الى تناثر اجزائهم . ــ وغاية التشريع عند الحداد حفظ كيان المسلمين فاذا لم يكن التشريع الحالي ليحفظ ذلك فانه تشريع ابتر يكون من حق جماعة المسلمين ان يصلحوه بما يجب ادخاله عليه من التعديلات . ولا شك ان العائلة الاسلامية التي هي النواة الاولى للشعب واجبة الحراسة وقد ابقي حق الطلاق بيد الرجل فهل كان هذا الرجل اهلا للامانة التي وضعت بين يديه ام كان غير اهل لها ..

«فاذا تاملنا حقيقة ما نحن فيه اليوم وقبل اليوم سواء اكان الطلاق بيد الرجل راجح العقل او بيد المراة فلا نجد الا ماساة تبدد اوصالنا وضحايا بريئة متكررة في كل يوم . فالرجل منا يضايقه حرفاؤه بالسوق او رفقاؤه فيلجا الى الحلف لهم بطلاق زوجه بكل انواع الطلاق اما ليثقوا بما يقول او مهددا بذلك خصما او خصوما والرجل منا يثق على زوجه لتافه الاشياء فينتفض كالغبار يسب ويلعن ويعقد انواع الطلاق لا الى الثلاث كما حدد الاسلام ولكنه يبلغ به المات والالاف ثم لا يلبث هؤلاء جميعا حتى يهدأ روعهم ويسكن غليان نفوسهم المريضة فيبكون ويشتكون ويعضون اصابع الندم ولات حين مندم حتى ينفذ عليهم الطلاق الذي لفظوه اثناء الغوغاء ولم يبق

[library stamp]

لهم الا الالتجاء الى اختيار زوج يرضى بمتعة ليلة او ليلتين ليحللها للاول بعد اصدار فتوى في ذلك من شيوخ الديوان الشرعي عندنا .

لقد اوسع الفقهاء الخرق اكثر من ذلك ففسروا الطلاق لا بانه ارادة وفعل بل بانه صدور لفظ في غير نوم او سهو او اكراه سواء كان هذا اللفظ صريح الدلالة على الطلاق او كناية عنه . بل هناك من قال منهم ان الطلاق دون نية الواحدة او اكثر ينصرف للثلاث احتياطا لاقصى مدلول اللفظ واغرب من هذا ان جمهورا منهم يقررون طلاق السكران المنتشي بخمرته عقابا له عما ادخل في جوفه من الحرام ولا يلاحظون ان هذا العقاب نفسه سينزل على زوج بريئة وذرية ابرياء يعيشون في انكسار وخيبة ، فهل هم بهذا التقرير يرون سهلا سائغا خروج المراة من بيتها ودخول اخرى مكانها وتشتيت ذرية ضعاف ؟ أن الله لا يريد هذا ، ومعاذ الله ان يكون الاسلام مصدرا لهذا الشر الفظيع . والله تعالى يبغض الطلاق وهو ابغض ما في الحلال اليه فهل يطلق به يد الرجل هكذا من غير روية ؟

كلنا نعلم ان الطلاق شرع في الاسلام للضرورة عند تعذر بقاء الزوجة ثمرة ما يطلب فيها فهو رخصة تقدر بقدرها . وليس القصد أن يطلق به يد الرجل ليتصرف فيه حسب ميوله واندفاعاته التي قد تعادل في تبدلها واضطرابها مجاري الرياح فتصبح الزوجة كريشة في مهب العاصفة . ولكنه مع الاسف العميق جدا قد كانت هذه حالنا التي مرت عليها الاجيال والقرون ومازالت محاكمنا الشرعية حتى الان تصادق على هذه الفوضى وتبرم نتائجها على الزواج والعائلة . وهذا ما رضي به علماؤنا وجمدوا عليه وربما قالوا انه الدين بعينه . فهل نبقى دائما في ريب من اسباب الخيبة في بيوتنا وضياع

نسائنا واندحار ابنائنا الذين يـولدون فـي هذا المحيـط المتصـدع بفجائعه وانكاده ؟ الا تعسا لعلمائنا وتعسا لنا معهم ما دمنا راضين بما رضوه لنا من الموت والاندحار .

لو تاملنا القران وهو شفاؤنا لراينا انه لا يعبا باللغو وسفه القول وانما يعتد بما يصدر عن القلوب من خير او شر يؤاخذ عليـه مع الغفران والحلم كما في الاية: «لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» .

ولكن اين نحن من القران فقد نسخنا نوره باقوال الجامدين من فقهائنا على اقوال من تقدمهم .» (33)

لقد بسط الحداد في الفقرة الاولى مما نقلناه عنه كيفية وقوع الطلاق واسبابه ونتائجه والمخلص الذي يوجده له الفقهاء والشيوخ بالتحليل .

ثم في الفقرة الثانية قد بسط موقف الفقهاء وتفسيرهم للطلاق لا بانه ارادة وفعل بل انه صدور لفظ في غير نوم او سهو او اكراه وتشددهم في ذلك غير مراعين النتائج الاجتماعية الحاصلة من ذلك .

وفي الفقرة الثالثة يبين الحداد ان الطلاق رخصة في الاسلام يجب ان تقدر بقدرها وثار ثورته الشهيرة على الشيوخ والعلمـاء لما جمدوا عليه وقالوا انه الدين وليس الا انصرام حبـل العائلـة الاسلامية صائحا «الا تعسا لعلمائنا وتعسا لنا معهم ما دمنا راضين بما رضوه لنا من الموت والاندحار» .

---

(33) امراتنا في الشريعة والمجتمع ص 41 وما يليها . والملاحـظ ان هـذه طريقة جديدة في البحث في الشريعة الاسلامية . (د)

واما الفقرة الرابعة فهي استدلال على روح الاسلام في الحلف بالطلاق الذي امضاه الفقهاء وكان خرابا للبيوت الاسلامية باية كان الشيوخ لا يعرفونها وهي قوله تعالى : «لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» .

فهذه الطريقة تنظر للواقع اولا من وجهين وجهة الموجود في الحياة عند المسلمين وما فيه من الضعف والوهن في حياتهم ثم تنظر للواقع من جهة الحكم الذي يقرره الفقهاء ثم تنقل للنظر الى روح الشريعة فلا بد ان تجد في هذه الروح علاجا لحالة المسلمين وهذه الروح ظاهرة جلية في الايات القرانية والاحاديث النبوية ولكنها مطموسة في اقوال الفقهاء واحكامهم .

ان هذه الطريقة تسمح بخلق نظام جديد لا ينكر الماضي الا فيما احتوى عليه من الفساد ولا ينكر الدين بل يؤيده حق تاييده ويجعله كما هو في حقيقته صالحا لكل زمان ومكان وذلك معنى خلوده ويكفل مصلحة المسلمين ويحفظ عائلاتهم من التفكك ويقبل كل اصلاح جديد نقتبسه من اوروبا او غيرها ويقبل اكثر من ذلك في التطور بل يقبل حتى الانظمة التي يمكن ان يلدها المستقبل كالنظام الاشتراكي مع هذه الخاصية التي نمتاز بها على الانراك وهو ان ما نقبله على هذا الوجه ليس تقليدا او نقلا وانما هو يصير بفهمنا له وادخالنا اياه في المبادىء العامة التي لنا جزءا من نظامنا القديم وقطعة من انفسنا ، حتى اذا اردنا استبداله يوما بما حدث لنا من القضايا رجعنا عنه وادخلنا في نظامنا غيره مما نقتبسه او نستنبطه فيصير كذلك شيئا منا وجزءا من اجزائنا ونظاما من انظمتنا غير منفصلين به عن التاريخ ولا عن الدين .

وبهذا البسط يتبين ان لا محل للسؤال القائل : هل ان عملنا في اخذ النظام الجديد يوافق الدين اولا يوافقه لان الامر يتعلق بنا ليس الا ، فاذا اردناه ان يكون من الدين كان جزءا منه واذا اردناه ان يكون خارجا عنه كان كذلك واما الشريعة الاسلامية فهي في روحها وجوهرها قابلة لكل حق ولكل اصلاح وانما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

ان المسالة تنحصر في اعتبارنا فمجلة العقود والالتزامات مثلا التي يجري بها العمل لم تكن من الدين ما دمنا نجعلها قانونا للمحاكم الزمنية وهي نفسها من الدين اذا وضعناها بنصها ذلك على ان تكون من احكامه متى راعينا في وضعها ايصال الحقوق لاربابها والتوصل بها الى الانصاف والعدل بين المتقاضين وذلك هو غاية الشرع . واذا فرضنا الاحتياج فيما بعد لتغيير القانون المذكور لما حدث للناس من الاقضية كانت لنا مندوحة شرعية في تغيير تلك الاحكام سيرا مع المصلحة والغرض الاسمى للشرع وكان عملنا عملا شرعيا وكانت الاحكام التي تقررها كذلك احكاما شرعية .

ان الدين كمال والشريعة حافظة لحقوق الناس وكافلة لمصلحتهم الفردية والاجتماعية بالسير بهذه المصلحة الى الكمال الاعلى لا يتخالف مع الدين ابدا بل هو غرضه واذا تقررت من قبل احكام شرعية بطريق الاجتهاد مثلا لنصل بها الى كمال نسبي فلا تقف بنا تلك الاحكام اليوم عن مسايرة طريق الكمال الى غاية اسمى .

ولذلك كان الحداد ينظر الى مصطفى كمال (1) نظرة اعجاب وهو شخصيا قد استفاد من الاصلاحات التركية كثيرا فقد ثبت عنده بها ما اخذ يجول بخاطره من اسباب ضعف المسلمين وظهر له ان اناسا ببقعة اخرى من الارض على رايه في ذلك وان لهم من القوة ما لم يتوفر له سواء في قوة الدراسة والفكر او قوة المادة فاخذ يتعلم عنهم ويتتبع ادوار الانقلاب التركي باهتمام متزايد .

ويجب لفهم الانقلاب التركي الذي قام به مصطفى كمال ومن معه من الوطنيين ان نضع المسالة على الوجه الذي اعترضتهم به ذلك ان الدول المتحالفة قصدت الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية واحتلتها فعلا عقب الهدنة وقبلت السلطة التركية الرسمية الاحتلال وقسم المتحالفون بينهم تراث الدولة على وجه الوصاية . وهذه الازمة اذا نقلناها الى التراب التونسي لا نجد لها نظيرا الا في سنة 1881 عند دخول الجيوش الفرنسية للتراب التونسي من جهة الجزائر ونزول وحدات من الجيش الايطالي بالتراب التونسي من جهة الساحل .

وكانت النتيجة لهذه الازمة عقد معاهدة باردو وصارت تظهر لنا اليوم هذه النتيجة طبيعية الا ان اجدادنا في سنة 1881 لم يكونوا جميعا على راينا اليوم فكثير من القبائل قد ثارت على السلطة المركزيةبتونس ونعرف انصفاقس رفضت الخضوع للاحتلال الا بعد مقاومة وفرضت عليها غرامة حربية اعفيت فيما بعد من جزء منها ولم يكن

---

(1) مصطفى كمال باشا اتاتورك – 1881 – 1938 – باعث تركيا الحديثة ومقوض الخلافة العثمانية قام باصلاحات ثورية عميقة اثر توليه رئاسة الجمهورية سنة 1923 – م –

الفرنسيون يرون هذه النتيجة ايضا طبيعية فقد كانوا مضطرين في معاهدة باردو للتصريح بالصفة الوقتية لاحتلالهم وبقصره على بعض جهات وتطمين اهالي العاصمة واعطائهم التاكيدات في عدم دخولهم للعاصمة وازاء اشاعة اخرى في العاصمة صرحوا بعدم نيتهم احتلال القيروان الى غير ذلك الا انا نعلم انهم يحتلون القصبة ويحتلون القيروان وانهم يدعون بقاءهم الى الابد في التراب التونسي (34) .

فموقف مصطفى كمال وحزمه كان مغايرا لموقفنا نحن ويشبه شبها كبيرا في الروح موقف بعض اجدادنا الذين ارادوا مقاومة الاحتلال الا ان مصطفى كمال كان مشبعا بالعلم والروح العسكرية ولم يكن قواد اوروبا يفوقونه في شيء وكان في مركز يسمح له بجمع كلمة شعبه وبيده من الوسائل ما يمكنه من ذلك فمزيته كانت في جمعهم حول كلمة واحدة والسير بهم الى النصر رغما عن القوات الكبرى التي كانت تعترضهم .

وعندما وقف مصطفى كمال هذه الوقفة كان اول شيء يعترضه هو نظام الشعب التركي الداخلي فقد راى هذا النابغة ان العملية التي قام بها قد لزمته لطمع الدول الاروبية في تراب بلاده وان هذا الطمع ناتج عن حالة خاصة من الضعف ال اليها امر الاتراك وتقدم مصطفى كمال للدفاع عن بلاده وانقاذها ثم احب ان يجعل للبلاد تحقيقا في خلاصها الى الابد من المطامع الاجنبية ولن يكون ذلك الا بالقضاء على اوجه الضعف الناتج عن حالة الشعب الداخلية . وفعلا فان النظام الداخلي السائد في بلاد المسلمين هو الذي مكن

---

(34) انظر مجموعة الرائد التونسي سنة 1881 . (د)

الاجانب من نواصيهم واكبر دعامة للنظام في بلاد الاسلام هم الشيوخ فهذه الطبقة في عمومها قد كونت لنفسها مركزا ممتازا في الدولة ، فهي قد خلقت في نفسها اكليروسا للاسلام كاكليروس النصارى وجعلت لنفسها وحدها حق تفسير الدين وتوصلت بفضل الخدمات الخاصة التي قدمتها للملوك واكابر الدولة على الاعتراف لها بالفضل وتمكينها وحدها من كثير من السلط الرسمية ولم يحصل الشعب الاسلامي من كل ذلك الا الاعتراف له بعقيدته وانها مرفوعة الجانب . ولم يكن ذلك الا اسميا فقد كانت افظع الجرائم ترتكب باسم الدين يؤيدها الفقهاء ويفتون فيها وكانوا يبيعون رضى الله بالدراهم وبالمزايا الدنيوية وبالرواتب الجارية واعطاهم الملوك كل ما يبتغون لاحساسهم بان كسب رضى الشيوخ يمكنهم من رقاب الناس وقد كان هؤلاء النفر اكبر عون للاستعمار في كل ارض حل بها فقد وجدوا له الفتاوي في مشروعية استقراره في دار الاسلام وجندوا الصلات التي يريد امراء المسلمين ان يربطوها معه وكانوا له عونا في تمهيد السبل اليه كلما احس بالحاجة اليهم واعطاهم ـ كما اعطى الملوك من قبله ـ كل الامتيازات واجرى لهم الرواتب وكافاهم احسن المكافاة وقد كادوا يطون بتركيا الى هذا الدرك لولا اليد القوية التي انتشلت الشعب التركي عن بين براثنهم وبراثن حليفهم القديم «خليفة الله في الارض وظله الممدود في الطول والعرض» وحليفهم الجديد الاستعمار الذي هو سواء مع الملوك «اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة» فهل اذا انتصر مصطفى كمال على الاجانب سيترك امته نهبا للشيوخ وللسدة السلطانية ؟

ـ كلا !

أن عمل التحرير الذي قام به مصطفى كمال مزدوج بالتحرير الاول من سلطة الاجانب وبالتحرير الثاني من سلطة الشيوخ والخلافة ، وبذلك كان عمل مصطفى كمال خالصا للشعب قائما على احسن النظم الديمقراطية الصحيحة .

ولو ان مصطفى كمال كان على غير هذه النية الخالصة مع الشعب التركي وكان يقصد ان ينال منافع شخصية لكان له عند الانتصار ان يحل محل ال عثمان انفسهم ويتوج نفسه ملكا على الاتراك وخليفة على المسلمين وليس ذلك بالذي ينقصه في المظاهر عن رتبته الان في رئاسة الجمهورية التركية وان كان ذلك ينقصه كثيرا في نظر التاريخ ونظر الاخلاص الى الشعب وقد يجعل ذلك التقهقر امام الرجعية كل عمله التحريري من السلطة الاجنبية مهددا في وجوده لان الدول الاستعمارية ستعيد الكرة على بلاده لو ترى له يوما وجها من الضعف او الانحلال فالمعركة الثانية التي انتصر فيها مصطفى كمال هي ضمان المعركة الاولى وهي اكثر فخرا له امام الواقع والتاريخ من المعركة الاولى وان كانت عملية انقاذ شعب كامل من الاحتلال وتركه سيدا في ترابه يعيش حرا طليقا من العمليات التي لا يقوى الدهر على محوها من ذاكرة الانسانية .

ولذلك لم يكن الحداد ينقم على الحركة التركية بعدها عن الدين وانما ينقم ذلك على شيوخ الاتراك الذين جمدوا حتى خرج الشعب التركي عنهم ، ولو اتبع مصطفى اتاتورك اقوال الشيوخ لهدم دولته ولسار بها الى الفناء ولوجب على الشعب التركي ان يجرفه واصحابه من قيادة الامة ونحن ازاء هؤلاء الشيوخ :

قد انلناهــم الــذي طلبــوه افهــل كـــان غير ذل وفقــر (35)

والخلاصة ان الحداد قد درس بالجامع الاعظم واستفاد منه كثيرا من حيث تقرير الاصول التي يجب ان نبني عليها مستقبلنا وهي الاسلام في روحه ومبادئه السامية ونبذ ظهريا فقهاء المذاهب الذين لا يعبرون الا عن انفسهم وحالة المجتمعات التي عاشوا فيها ونبذ ايضا اقوال الشيوخ الذين لبسوا الحق بالباطل مناديا :

ليت شعري الى متى نسمع الشـ يخ كانا نصغي لقولة صدق (36)

ولكن يجب ان نساير التطور العام في الامم المتمدنة وناخـذ عنها طرائق عيشها ونفتح انفسنا للمدنية الغربية ولما فيهـا مـن القوة والمجد والحق لا لما فيها من الفجور والفساد الذي غزانـا وحده دون ان نستفيد من المدنية شيئا اخر .

فالحداد يقبل المدنية الغربية كمرحلة من مراحل الانسانية في سيرها الطويل بما فيها من الخير والشر الملازم لها ويعتبرها افضل بكثير من الحالة الحاضرة مع بقاء الكفاح فيها للتـوصل الى نظـام اسمى ولا يرى ما يخالف الدين ولا ما يقضي عليه ويناقش القائلين بذلك فيقول :

لا تصـدق يـا شــرق ان رقـــي الغــــرب كفــر يبــدد المسلمينـا

امة الغــرب ما تــزال لعيســى وببوذا اليابان فــي المؤمنينـا

وبموسى اليهود زادوا ارتباطا بعد نيل العلى مــع السابقينـا

كلهم وحــدة تبيـــد شتاتـــا من قوانـا وما لنا مـا يقينـــا

---

(35) من قصيد : «ضحايا الماضي»

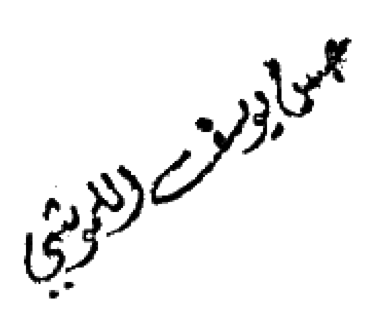
(36) من قصيد : «ضحايا الماضي» (م)

كلهم في تمـدن العصر فـازوا   لم يصبهم في الدين ما يعترينـا
افهل كان دين احمـد يخشـى   دون كل الاديان في العالمينـا

* * *

هكذا راسنا يرى الوهم دينـا   يبتغي العيش فيهخبزا وتينا(37)

والحداد مع ما علم من ثقافة اسلامية قديمة ومع ما وصل اليه بالفكر من قبول المدنية الغربية كوسيلة لخلاص المسلمين من حياة الذل التي يحيونها وكوسيلة ايضا لتحرير العامة من سيطرة الرؤساء في الدين والعصبية الذين يعيشون على حساب الدهماء ويمتصون منهم كل خير بالقاب مختلفة سياسية ودينيـة كان عامـلا بعلمـه وسندرس فيما ياتي من الفصـول عملـه في السياسـة والاقتصـاد والاجتماع في بحر السنوات القليلة التي تمكن فيها من العمل .



(37) من قصيد : «الدفين» . لم يسبق نشره ، نظمه بتاريخ 26 جويلية 1932 كما هو بخطه وامضائه .

حياتـــه السيـــاسيـة

قبل ان نذكر شيئا عن حياة الرجل السياسية يجب ان نحـــدد نشاطه السياسي في الزمان والمكان ولنبادر بالقول بان هذه الحقبة من تاريخه العمومي كانت اقل ادوار حياته اهمية وانما افادته كثيرا في التجربة وقد ارتبطت حياته بتاريخ الحركة التونسية في الخمس عشرة سنة الاخيرة .

قد سبق ان ذكرنا انه ولد على راس القرن العشرين ولا يمكن ان يبتدىء تاريخه العملي الا بعد الحرب الكبرى وبعدها بفترة من الزمن وقد سلمت تونس من ان تكون ميدانـــا للحرب بفضل دخـــول أيطاليا بجانب الحلفاء ولكنها قدمت ضحايا بشرية ومادية هي كل ما تملك من شباب وكل انتاجها لتحقيق النصر لفرنسا ـ وانتهـــت الحرب بهذا الانتصار على معنى حرية الشعوب لتحكم نفسها طبقا لشروط «ويلسن» (1) ـ فقام بتونس جماعة من الشبيبة يطالبـــون بتحقيق هذا الشرط من شروط الهدنة ولكن من المعلوم ان معاهدة فرساي لم تكن مبنية تماما على شروط الهدنة ، وقبلتهـــا المانيـــا وانتهى الامر وتقرر بقاء الاستعمار الذي كانت الشعوب الشرقية قد ظنت

(1) Wilson (Woodrow) رئيس الولايات المتحدة الامريكية من سنـــة 1913 الى سنة 1921 ـ م ـ

ساعةً من الزمن زواله . فلم يكن من تلك الشبيبة المطالبة بتحرير البلاد الا ان غيرت برنامجها فصار مطالبة فرنسا باكثر ما يمكن من الحريات للشعب كجزاء عن اخلاصه ومعاضدته زمن الحرب وكنصيبه من ارباح الحرب التي شارك فيها ، وصارت تعتمد في ذلك على معاضدة احزاب الشمال في فرنسا التي كانت تظهر لها استعدادا حسنا لاجابة الشعب لذلك . وتوجه الشيخ الثعالبي لفرنسا كموفود من البلاد لتحقيق هذا الغرض .

وكان ان فرنسا لما انتهت الحرب وجهت لتونس م . «فلادان» بصفة مقيم عام وهو رجل من شيوخ فرنسا الوقورين ومن عائلة عريقة في الجمهورية ، فكان برنامجه اعطاء بعض حريات لتونس واخذ بعض مصالح جديدة منها للاستعمار ـ ومن الضروري ان يعطى التونسيين بعض الحريات اثر الحرب الكبرى فمن المفيد جدا ان تعرف الحكومة بواسطة حرية القول ، تفكير الشعب التونسي بعد ان الجم طيلة سنين ففتح م . فلاندان للصحافة المعطلة قبسا من نور الحرية واراد في ان واحد أن يروج قرضا على حساب البلاد وان يضع قانونا لانتزاع الاحباس الخاصة (2) فاعطى بذلك وسيلة للشبيبة للاجتماع والاحتجاج وضم اليها بعمله اصحاب المصالح من المنتفعين بالاحباس الخاصة وقامت الصحافة تؤيدهم وتكون وفد منهم قابله بتونس وتكون وفد اخر التحق بالشيخ الثعالبي بباريس للدفاع عن قضية الاحباس الخاصة وتاييد القضية التونسية التي كان الشيخ يدافع عنها بباريس . وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي يبلي البلاء

---

(2) راجع تونس الشهيدة ص 100 وما بعدها وما نقلته عن جريدة الطان Le Temps الباريسية عدد 17 ماي 1919 . (د)

الحسن في عاصمة فرنسا لتاييد مطالب الشبيبة التونسية وعقد املا كبيرا على نجاح الشمال في انتخابات سنة 1920 ولكن خاب هذا الحزب خيبة كبرى جعلته اقلية في مجلس النواب ولم يكن الشيخ يامل كثيرا او قليلا من احزاب اليمين الذين على راسهم م . بوانكاري (3) السالف لما هم عليه من التشدد في المصالح الوطنية الفرنسية وتلك الخيبة كانت تاجيل المسالة التونسية الى اربع سنوات .

ولكن رجلا كالشيخ الثعالبي لم يكن ينتظر مثل تلك المدة بلا عمل واذ قد طلب اليه بيان المطالب التونسية باكثر ما يمكن من الدقة نشر كتاب «تونس الشهيدة» (4) الذي بسط فيه الحالة بتونس وختمه بالمطالب التي يراها موفية باصلاحها .

وكان من برنامج م . فلاندان عقد قرض لفائدة تونس بمبلغ مئات الملايين لاتمام جهازها الاقتصادي الذي عطلته الحرب الكبرى فانتهز الشيخ عبد العزيز الثعالبي هذه الفرصة وقام بدعاية بباريس مقتضاها انه لا يجوز عقد قرض بهذه الاهمية دون اخذ راي الذين يهمهم الامر وانه لا يمكن اتمام ذلك الا بمنح البلاد دستورا حرا تقرر على مقتضاه اذا كان من الملائم لها عقد القرض اولا .

واذ قد استمرت معارضة الشيخ على هذا الوجه القي في السجن بدعوى التامر على امن الدولة وجيء به الى تونس على حالة ايقاف واستمر البحث في نازلته مدة عشرة اشهر ثم حفظت النازلة واطلق سراحه . وفي هذه الاثناء ظهر الشيخ الحداد من

---

(3) Reymond Poincaré رئيس جمهورية فرنسا من سنة 1913 الى 1920 . (م)

(4) نشر جوف وشركاؤه باريس ذهج راسين رقم 15 . 1920 . (د)

المحتفلين باطلاق سراح الشيخ ومن المندفعين في تيار الوطنيـة .

ولنلاحظ هنا ان هذه الحركة هي اول حركة عمومية في تونس قام بها التونسيون لفائدتهم الخاصة وباسم وطنهم ، وترجع اسباب ذلك الى تاريخ بعيد .

ففي سنة 1453 هـ حيث فتحت القسطنطينية كانت دولة بني حفص في تونس قد ادركت دور الهرم وضعف امرها وتراجعت ، وضروري ان فتحا مبينا كفتح رومة الشرقية التي كانت منذ ظهور الاسـلام مرمى الفاتحين من المسلمين يكسب محققه بعد التطلع اليه فـوق الثمانمائة سنة مجدا وذكرا لا ينمحيان بتعاقب الازمان .

وكان من عمل جماعة الاتراك القيام بعمل القرصنة ضد الافرنج بالبحر الابيض المتوسط وعلى راس هذه الجماعة خير الدين وعروج فقدما على الامير الحفصي واتفقا معه على الغـزو وان يكـون لـه الخمس من الغنائم ولكنهما علما حالة الانحلال التـي الت اليهـا المملكة التونسية فعزما على احتلالها باسم سلطان الاتراك وكانـا قد ملكا الجزائر من قبل ولكن الامير الحفصي لما علم خسران الصفقة باحتلالهما فعلا عاصمة البلاد واستقرارهما فيها باسم السلطـان نادى بجماعة ملك الاسبان شارلكان وعقد معه معاهدة حماية وسار الاسبان في معاملة التونسيين معاملة وحشية . ومنذ ذلك الحيـن صارت البلاد محل نزاع بين الاتراك والاسبانيين وكان للاتراك مزية في ميل التونسيين اليهم لاسباب :

1 ـ الاتحاد في الدين .

2 ـ ظلم الاسبان في مدة ولايتهم .

3 ـ تصورهم الاسبان في صورة باغين والاتراك في صــورة منقذين .

حتى استقر لهم فيها النفوذ بصورة نهائية .

ولكن التونسيين الذين لم يالفوا ان يعدموا حكومة لهم من زمن قرطاجنة قد طوروا هذه السلطة الى دولة لهم هي الدولة الحسينية التي كانت قبل الاحتلال الفرنسي تكاد تكون مستقلة وبذلك لم يقع اي تصادم بين السلطة التركية وابناء البــلاد وحفــظ التونسيــون للاتراك ودهم ولم يحملوهم مسؤولية في حالتهم ، وجاءت الحماية الفرنسية مستندة الى ذلك الاستقلال الذي اعتبرته السلطة الفرنسية كاملا وعارض فيه السلطان فاعتبر كثير من التونسيين عن حق او عن باطل الحالة شبيهة تمام المشابهة بالحماية الاسبانية وانتظروا من السلطان ان يخلص تونس كما خلصها سلفه من قبل واستمرت هذه الذهنية في عموم التونسيين الى انتهاء الحرب الكبرى يؤيدها شيوخ الطرق وشيوخ الجامع الاعظم بدعوى الامتحان من الله الى ان ياتي الوعد الذي يخلص الله به عباده الصالحين .

وقد نجد من تاثير هذه الذهنية مهاجرة فريق من التونسيين عند الاحتلال الفرنسي الى طرابلس الغرب والى البلاد العثمانية بعد استقرار الامر لفرنسا على امل ان يقدمــوا مع الجيش الفــاتح . وكان الحج وسيلة لقصد تلك البلاد يتستر وراءه المهاجرون حتــى يبارحوا تراب المملكة باتفاق مع السلطة . وكانت الدولة التركيــة تعتبرهم عثمانيين بمجرد وصولهم الى التراب الذي يظله الهلال وانخرط الكثير من ابنائهم في سلك المدارس الحربية العثمانية وقد حكى لي

احد تلامذة هذه المدارس ان انور باشا كان يـزور هذه المـدارس ويشكر التونسيين ويقول انهم الامة الذين خدموا «الشجـرة» من اصولها ، ويقصد الاتراك من «الشجرة» الخلافة الاسلامية .

ولنلاحظ ان الذهنية المصرية قبل الحرب لم تكن بعيدة عن ذلك بعدا محسوسا . فزعيم الوطنية في بلاد النيل ـ مصطفى كامل ـ كان ينتمي للاتراك ويؤيد حقوق السلطان على بلاده ـ وخديوي مصر لم تكن له سياسـة الا بتعديل النفـوذ البريطـاني بالنفـوذ العثماني .

ومن الغريب امر الامم العربية قبل الحرب في ذهنيتها بالنسبة للامم التي اجتاحت بلدانها . فقد كان العرب الذين تحت الحكومة العثمانية يبغضون الاتراك ويتوددون الى الدول الغربية والعرب الذين كانوا تحت هذه الامم يخطبون ود الاتراك ويبغضـون حكـم الاجانب عنهم في الدين . واذكر ـ وعلمي بهذا مستمد من الدعاية التي كانت تروج في الاوساط التونسية ـ ان في اجتماع الشبيبـة التونسية زمن الهدنة حيث كان المنتظر استشارة البلاد في تقريـر مصيرها دار الامر بين أن يطلب التونسيون الاستقلال او الانضمام الى دولة اخرى . وفي هذا الافتراض وقع التردد بين الانضمام الى مصر او الى تركيا . فالذين يختارون مصر يقولون انها دولة عربيـة وسيمكننا ذلك من العيش معها بتفاهم علـى الاقل ويقـول الذيـن يريدون الالتحاق بتركيا ان مصر لم تستقل بعد في ذاتها وهي تطلب حريتها مثلنا واقفة موقفنا سواء ، فهي تحت الاستعمار الانقليزي كما نحن تحت الاستعمار الفرنسي فالتحاقنا بتركيا يضمن لنا ان نكون جزءا

من دولة ثابتة الاستقلال من اجيال بعيدة .

واذ ضاعت كل تلك الامال وتحقق انحلال الخلافة ، كان حقا ان تتكون في التونسيين فكرة تبعث فيهم الامل لحياة سعيدة (5) . ولا شك أن هذا يفرض ان التونسيين لم يكونوا راضين بحالتهم فاذا قطعنا النظر عن الحالة الاجتماعية السيئة ونظرنا للمسالة من الوجهة السياسية الخالصة يظهر لنا ان النظام التونسي عديم المنطق على الاقل . فجميع النظم التي تقوم على وجه الارض تدعي انها في مصلحة الجمهور حتى اشد الديكتاتوريات صلابة . والفرق بينها جميعا هو ان النظم المسيطرة تدعي انها تريد ان تقود الناس الى الجنة بالسلاسل والنظم الديمقراطية تدعي انها تسير برغبة الشعب ولكن النظام في تونس مبني على اشتراك سلطة سمو الباي وسلطة فرنسا. والمطحة التي تسعى اليها الدولة هي مصلحة هاتين السلطتين ليس الا .

واذا كانت السلطة التونسية تدعي في اخر الامر انها لمصلحة الشعب فان الحقيقة انها لا يمكن ان يعتبر لها وجود فعلي حقيقي . فقد جاء زمان كانت الحكومة التونسية فيه بتمامها بما تشتمل عليه من وزراء وعظماء اعجز من ان تحقق فتح مدرسة ابتدائية

---

(5) ان من جملة مزايا الحركة الكمالية وحذف الخلافة الاسلامية بالنسبة للمسلمين غير الاتراك هو توجيه هذه الشعوب الاسلامية للعمل لمصلحتها مباشرة . ولا شك ان حمل عبئهم جميعا وهم مئات الملايين على عشرة ملايين من الاتراك او يزيدون امر لا تقوى عليه الدولة التركية ولا غيرها كما ان مصلحة المسلمين عامة لم تكن في هذا التواكل بل في اشتغال اممهم المختلفة مباشرة بفصل قضاياها وخدمة مصالحها بنفسها (د) .

تاوي مائة من التلاميذ بل لا يوجد فيها من يفكر في عمل لفائدة الشعب له هذه القيمة . ويمكن ان نقول ان هذين المليونين من النفوس العائشين في هذه البقعة من الارض لا يمكنهم ان يدعوا فيها شيئا لانفسهم من الحقوق . فالحكومة حكومة الباي وفرنسا ، ولها السيادة دون الشعب ، ولا وجود لهيئات منتخبة البتة ولما وجدت هذه الهيئات المنتخبة بعد ذلك فهي لا تمثل الا طبقة معينة وفي الناحية الاقتصادية خاصة . والشعب يفقد حتى حق القول والتصريح بما يجول في خاطره وليس له حق الاجتماع وقد عاش سنوات عديدة تحت الحكم العسكري ولم تتغير الحالة كثيرا وهو عديم الثروة فاذا توجه الى الحكومة يعلم انها لم تكن له ، واذا توجه الى مؤسساته لم يجد شيئا واذا رجع الى نفسه وانكمش ليعيش من ثروته لم يجد الا الاملاق واذا رجع الى الاوهام التي كانت تخدره وكان يامل منها الخلاص وجدها قد تبددت .

وكانت الحركة الدستورية التي خلفت كل ما كان لتونس من الحكومات عن قديم الزمان وخلفت ما كان لها من المجد والتي ستقوم مقام المؤسسات المفقودة والحريات الضائعة والثروة المبددة والتي ستخلف حتى الاوهام المعسولة التي يعلق بها الغفل امالهم ليعيشوا مدى حياتهم مطمئنين على المستقبل ان لم يكونوا في سعادة حالية .

وهذه الحركة اما ان تكون العوبة يتلهى بها الشعب او تكون مؤسسة حية نامية اعدت للكفاح والمقاومة . وهذه الحركة قد كانت من عمل الشيخ الثعالبي فبعد فشل محاولاته بفرنسا بالقائه بالسجن بادر بمجرد اطلاق سراحه بتاسيس الحزب الحر الدستوري التونسي

ليكون له هيئة يعتمد عليها في المصارعة . وجمع اليه اعيان التونسيين على نمط حزب الوفد المصري زعما ، فحوى الحزب في هيئته التنفيذية جماعة من الماليين والكبراء المنتسبين لعائلات عريقة في البلاد وثلاثة من المحامين وعددا من التجار وكبار المزارعين والملاكة وذوي المهن الحرة ، فكانت هيئة تبعث الاحترام ومنظرا من احسن المناظر فقد زاد في البلاد مظهرا جديدا وانحصر عملهم في الاحتجاج التلغرافي في بعض المناسبات يوجهونه لوزارة الخارجية الفرنسية وفي اقامة حفلات ليلة 27 رمضان باعتبارها ليلة القدر خير من الف شهر :

وفي ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء (6) .

وارادوا من هذه الخلقة الجديدة ان تكون منظرا وشكلا فقط يدر على اصحاب المهن منهم الخير بالدعاية الواسعة التي ينشرها حول اسمائهم المباركة (7) ولم يكن احد منهم ليتنازل لعمل شيء جدي الا صورة وادعاء . بل لقد امسكوا حتى عن حضور الاجتماعات الدورية التي يجب ان تعقدها الهيئة .

---

(6) البيت من قصيد الهمزية لشرف الدين البوصيري . (م)

(7) الزمان : نسخة اتفاقية بين اعضاء الحزب والسيد محيي الدين القليبي . (د)

انظر سانحة الجريدة تحت عنوان : وثيقة سرية ينفرد الزمان بنشرها .
راجع ايضا افتتاحيات الزمان التي لها علاقة بالموضوع وهي بدون امضاء :
2 ماي 1932 ــ مقال بعنوان : كيف يتلاعب محيي الدين وعصابته بمصالح الوطن وبنيه .
16ماي 1932 مقال بعنوان : كيف بذر محيي الدين الرماد في العيون
6 جوان 1932 مقال بعنوان : مجرمون يتعاضدون
20 جوان 1932 مقال بعنوان : مواقف مضطربة ــ م ــ

وبجانب هؤلاء المتزعمين يوجد عنصر اخر من الشبان يريد من الحزب الكفاح والمقاومة والمعارضة وحتى التاسيس ليقوم للامة بما تفقده الامة من هيئة تدافع عنها وترشدها لطرق النجاح في الحياة وتريد هذه الفئة ان يكون الرؤساء للتاسيس والعمل المنتج وان يتقدموا ان لزم لميدان التضحية امام الشعب وقد تظن ان العمل السياسي يتم بالمظاهرات في الشوارع والمصادمات مع البوليس والهياج وتحرير المقالات الشديدة ضد الحكومة .

ويتفق الفريقان في القول باضطهاد الحكومة للشعب وتصاممها عن سماع دعواه وبان الشعب اهل للحريات وانه في درجة تسمح له بالتحكم في نفسه وهو وارث المدنية العربية .. الخ

وصادف شباب الحداد هذا العصر اي عصر تاسيس الحزب في طفولته الاولى باسم الوطنية التونسية التي استهلت في فجر شبابه وخروج الشيخ الثعالبي من السجن يحمل علم الوطنية والمطالبة باصلاحات للبلاد ونظام جديد فلازمه الحداد واشتغل معه في العمل اشتغالا مفيدا . وكان الشيخ الثعالبي يقدره حق قدره ويعرف له اخلاصه ومزاياه في التفكير وقوة الحجة وفي التحرير والتحبير وان غالب اشتغال الفقيد بتحرير المقالات الضافية عن حالة البلاد التونسية ولم يكن احد من التونسيين في قوته في تحرير مقال ، فهو رجل المبدا الذي يكتب باخلاص ليفيد ولم يكن يكتب شيئا لملء الفراغ من الصحف ويظهر ذلك من مقالاته جميعا (8) فلا تجد فيها حرفا

(8) كان الحداد ينوي جمع هذه المقالات في كتاب خاص بعد كتاب العمال ثم ظهر له نشر كتاب جديد نشر بعض فصوله في جريدة الصواب وفي مسالة المراة وبعد اتمامه هكذا عنونه «امراتنا في الشريعة والمجتمع» (د)

واحدا زائدا ولم يكن يستعمل شيئا من العبارات المتداولة على السنة الكتاب فهو ابغض الناس للقوالب . واستمر يعمل هذا العمل ويدعو الدستور دعاية كابلغ ما يكون . فلم يكن يقصد فقط الاجتماعات العامة ولا اقناع العموم في خطب تلقى عليهم فحسب بل كان يعتمد بالاخص على تكوين افراد يرى فيهم الاخلاص والاستعداد الحسن واستقامة التفكير فيخالطهم ويعطيهم اهم وقته وفي شؤونهم الخاصة ايضا .

وهذه الخلطة تستدعي مشاركتهم في سيرتهم فالحداد يؤاكلهم ويصاحبهم الى التنزه ويعود مرضاهم ويشيع جنائزهم واذا اختلف الزوجان اصلح بينهما وهو في ذلك لا يرى غضاضة ولا يحس بثمن لوقته الذي يصرفه على جماعة من عموم الشعب .

وهؤلاء النفر قد ربى فيهم الحداد شيئين : حب الوطن وحب الحرية ودفعهم الى العمل اليهما فاسسوا بتاثيره نادي المركاض ونادي سيدي منصور للحزب الحر الدستوري اللذين كانا اول النوادي بتونس واللذين داما مع الحزب الدستوري ما دام الحداد بهذا الحزب فلما انفصل الحداد عنه للاسباب التي ستلي في اتفاق الاحزاب ضد جامعة عموم العملة التونسية كان الاحتجاج يحرر بنادي المركاض الذي ينسحب فعلا عند انسحاب الحداد . ويسترجع السيد عبد القادر هلال محله الذي كان ناديا . ولما يصدر الحداد كتابه «امراتنا في الشريعة والمجتمع» يكون السيد عبد القادر هلال من المحتفلين به بالبلفيدير . ولما مات الحداد وكان السيد هلال بالفحص وقابلته هناك يوم 10 ديسمبر 1935 واخبرته الخبر شق عليه منعى الحداد كما شق على جميع اصحابه الذين حضروا جنازته.

فكان هؤلاء النفر القليل مع الحداد في افكاره وضـد من ضـادوا الحداد وقاموا عليه لا يتحولـون ولا يتبدلون مـا دام الحداد علـى الحق .

وحاول الشيخ الثعالبي لجنته التنفيذية بكل الوان المحاولـة فلم يفلح فاذا دعاهم تخلفوا لاتفه الاسباب واذا عمل دون مشورتهم قالوا عنه انه مستبد لا يستشير حتى «المتعاضدين» معه وكان ذلك خيبة للشيخ الثعالبي في برنامجه لم يجدها في حياته من قبل . ولم يكن هذا الرجل بالذي يغلب بسهولة فحاول تعديل برنامجه بتشريك الشعب معه في الحزب وجعل هذه المؤسسة شعبية بعد ان كانت بيد الطبقة الرفيعة وادخال الشبيبة الى الهيئة شيئا فشيئا لتعدل مـن سير الاعيان وبذلك تتم له الالة التي يقصد ايجادها لتغيير الحالـة بتونس كما سياتي بيانه فيما بعد .

وكان تنازل محمد الناصر باي عن العرش لفائدة الدستـور فرصة انتهزها الشيخ لجلب الجمهور للحركة فهز ذلك التنازل البلاد من اقصاها الى اقصاها ودخل الناس في الحزب افواجا وبعد حل الازمة برجوع صاحب العرش الى عرشه بقي الشيخ يتـردد علـى اقسام معينة من صغار التجار واصحاب المصانع وحتى العملة يبعث فيهم الروح الوطنية .

واذ قد صار هذا برنامجه وابتدا بتنفيذه فقـد صار مخطـرا فاعلمته الحكومة برغبتها عن عدم بقائه في التراب التونسي فغادر المملكة مجبورا في قالب مختار . ولما سار الى المرفـا ليمتطـيء الباخرة ذهب الحداد لوداعه وقبله الشيخ قائلا : «اني اعتمد عليك

في تونس» ولم يقلها لسواه فكان احباب الحداد يقولون له على وجه المزاح «انك خليفة الشيخ فينا» .

وصدع الحداد من ذلك التاريخ بالعمل جهرة ينفذ من البرنامج الجديد ما امكن فقد ام نوادي الحزب ـ وقد مر بنا انه اسس من انصاره الشخصيين ، ناديين ـ يخطب في الجماهير التي كانت تجتمع اسبوعيا ولا يتخلف عن مخالطة انشطهم واحزمهم في الدعاية وارغبهم في الوطنية ينير لهم السبيل ويكشف لهم عن طرائق التفكير لا يالو جهدا فينصحهم وتنويرهم وكانمجيؤه اليهم عيدا، يلتفونحوله ليلتقطوا الدرر المتساقطة من فيه ولم يكن ابدا ليفعل ذلك مع اعيان الدستوريين واثراهم واوجههم وانما كان ميزانه فيهم الاخلاص والاستعداد للعمل . فقد يقصد العملة منهم وأصحاب المصانع والاجراء مهما كانت اشتغالاتهم ومهما كانت ثروتهم .

والمشاع عند المتزعمين في ذلك الوقت ان الشعب ساقط منخذل منحل لا يمكن الاعتماد عليه وان «الزعماء» في هذه البلاد لا يمكنهم ان يعملوا شيئا كبيرا لفقدان المعاضدة الشعبية التي هي اصل للاعمال العمومية في حركات ترمي الى التحرير او المطالبة .

وقد كان الحداد يناقضهم ويقول : ان احدا من المتزعمين لم يشتغل باصلاح الشعب . فانا اعرف هذا الشعب في صفاته الحميدة وصفاته الذميمة . واذا كان له وصف ذميم فهو انقياده بسهولة المتزعمين واخلاصه لهم بسرعة واقدامه على تاييدهم لما يظهرونه له من حسن القول وهم كثيرا ما يخدعونه بقول خلب ومنطق حار . ويقول انما الشعب قد ايد المتزعمين عليه في كل ادوارهم تقريبا

ولبى دعوتهم كلما طالبوه باسم الوطن لشيء فقد طالبوه بتاسيس النوادي للحزب وطالبوه ببذل المال ودفعوه الى التظاهر والاحتجاج وغلق المحال التجارية فاسس وبذل وتظاهر واحتج واغلق ولم يتردد بل دافع عليهم المرار العديدة بالنفس فقد يصطدم الشعب في المظاهرات بقوة البوليس او الجند فلا يبالي وانما الذين كانوا دون المرتبة اللائقة بهم انما هم المتزعمون فقد كانوا دائما لا يخاطبون الشعب الا بمعسول القول ولين الكلام ولم يشتغلوا قط باصلاحه فلن تجد من بينهم منسعى لاصلاح حاله الاجتماعية او من قاوم فيه الذهنية العتيقة او من باشره بالحقيقة كما هي . وينتقد عليهم بالاخص سعيهم لانفسهم واتخاذهم السياسة والمصلحة العامة سبيلا لجلب الاموال الى انفسهم ويتمثل بقول المعرى :

انما هذه المذاهب اسباب لجلب الدنيا الى الرؤساء (9)

وانهم اذا ضاقت بهم المذاهب ولم يجدوا خلاصا لحالة لم يسعوا في اصلاحها الحقيقي يتهمون الشعب بكل رذيلة والحقيقة انه لا يمكن ان يطلب من الشعب غير ما قام به وانما على الزعماء ان ياتوا البيوت من ابوابها .

ولكنه يعلم ان انقياد الشعب وحسن استعداده لا يكفيان اذا لم يكن المتزعمون اهلا لقيادته فقد يفنى الشعب في الضلال دون ان يجد له مرشدا :

قضى القدر المحتوم بالحق ظاهرا اذا مات شعب يقبل الموت صاغرا
تحركت الدنيا ولكن شعبنا الى الان فيها يرتضي العيش خادرا

(9) لزوم ما لا يلزم — ص 6 . مطبعة الجمهور — مصر — 1323 . (م)

وما كان شعبا مات منه شعوره بلى انه يزداد فيه ماثرا
وللحق صوت بالغ من عمقه ولو قيل مت للمجد مات مفاخرا
ولكن تقديس القرون اظله والبسه ذلا وابقاه صابرا
فلو ان اهلية استمروا كبدئهم لالفوه سباقا ولم يك قاصرا
فمذ رد اهل الطول بالعلم جهلنا تولى زعيم القوم حيران كاسرا
وبات بجنح الليل ينسج حيلة يصدبها عن اعين القوم ماجرى (10)

واخذ الحداد يعمل بعد الشيخ مع السيد محيي الدين القليبي في الحزب الحر الدستوري وذلك ان الشيخ الثعالبي قد اراد ادخال عنصر جديد في الحزب من الشبيبة كما مر وطلب مشاركة ثلاثة انفار معه زيادة عن الشاب السيد احمد توفيق المدني الذي كان قبل عضوا باللجنة التنفيذية وهم محرر هذه الاسطر والحداد والسيد محيي الدين القليبي لتكون له قوة جديدة تمكنه من العمل وتنصره على الرجعة . اما انا والحداد فقد تفاهمنا على عدم قبولهذه المهمة لما نعرف من نفسية رجال الهيئة التنفيذية الذين يريدون الحزب قوة صورية واما السيد محيي الدين القليبي فقد قبل . ولما تذاكرنا معه في الامر قال انه يرى وجوب الدخول في هذه الهيئة ليدفعها للعمل المنتج ويحركها ويوقظها من سباتها ويختار ذلك عن الابتعاد عنها والعمل خارجها لانا فاقدون كل وسائل العمل وحدنا وكان من الامر ان قبل السيد محيي الدين القليبي ورفضنا ، على

---

(10) من قصيد : الخيبة في خمسين بيتا ، لم يسبق نشره كاملا وهو بتاريخ اوت 1929 كما هو بخطه ، اما الامضاء فكان باسمه الصريح ثم نسخه ووضع بجانبه « ضمير » والملاحظ ان الحداد امضى البعض من قصائده باسم ضمير نظرا لامتناع الصحافة لنشر قصائده باسمه (م) .

ان نعمل خارج اللجنة التنفيذية العمل الوطني الذي كان علينا ان نعمله داخلها .

فكان الحداد ياتي يوميا تقريبا لنادي الحزب لا ليقابل اعضاء اللجنة التنفيذية الذين كانوا لا ياتون الى دار الحزب وانما ليقابل السيد القليبي ويشاركه في تحرير المقالات في الصحف التي يجب ان تكون وطنية خالصة ويدافع فيها عن المظلوم والمهضوم ويشارك في حل المشاكل اليومية التي تعرض للحزب وتحرير موقف الحزب ازاء ما يحدث من الحوادث ومقابلة نواب الشعب الذين كانوا يؤمون النادي دائما رغما عن عدم وجود الشيخ الثعالبي . فلم يكونوا ليجدوا مكانه قفرا بل يجدون شبيبة تهتم بهم كما كان الشيخ وكما اعتادوا ان يجدوا بالمحل من النشاط .

ولم يكن للحداد في ذلك صفة رسمية كما لم يكن ينتفع بشيء مادي من هذا العمل اليومي وكان يزيد على هذا العمل فيشتغل باصدقائه الذين اصطفاهم لفكرته بالنوادي التي افتتحت في المدينة للدعاية للحزب يخطب فيها ويبث المبادىء التي يراها صالحة لانقاذ الوطن من الهوة التي وقع فيها .

والحقيقة ان نشاط الحداد في هذه الحقبة من الدهر كان خاليا من الدعاية الاجتماعية فكان يعتقد كما يقول الزعماء ان الحياة السياسية الحرة هي التي تمكن الشعب من البناء الاجتماعي ، فكل تاسيس يمكن ان تعطله الحكومة بسياستها فيجب قبل كل شيء تكسير القيود التي تمنع الشعب من النهوض ليتمكن من العمل . الا ان قوة تفكيره لم تكن تسمح له ان يعتقد ذلك اعتقادا جازما

بل كان بين الاونة والاخرى يخطب او يكتب على النهوض الاجتماعي دون ان يكون له ذلك ديدنا او طريقة . وهو عندما ينتقد على الحكومة سلوكها في مقاومة الحرية التي طولبت بها يرى انه من واجبها ان تعطي ما يكون مناسبا للظروف وحالة الشعب ولكن لم يكن لها ابدا ان تقتل روح المطالبة والتحرير والطموح مهما كان القائمون بها في غلط او جهل ويقول انه لا احد يجهل قوة فرنسا التي قهرت دول اروبا الوسطى فلو قامت تونس على فرنسا بتمامها وكان لها من العلم والاخلاص اكبر حظ لما غلبت فرنسا . فاذا طالبت فرنسا بشيء فلم تكن تقصد انها ستاخذه قهرا او جبرا وانما تاخذه لانه حق لها فاذا لم تعط الدولة الفرنسية هذا الحق فلا اقل من انها لا تسعى في قتل الروح الجديدة التي ربما ستغير هذا الشعب وتبعثه الى الحياة الحرة .

وقد رجع الحداد عن هذا الراي وعلم من بعد انه لا سبيل الى بقاء المطالبة الشديدة الى الابد دون ان تجاب وعلم ان لا سبيل ايضا الى التحصيل على حقوق سياسية دون ان يتاهل لها الشعب واعتقد ان العمل الاجتماعي يجب ان يسبق العمل السياسي وادرك الحكمة الكامنة في الحديث «كيفما تكونوا يول عليكم» التي تنادى بان النظام السياسي يجب ان يتطابق مع حالة الشعب اذ انه لا سبيل الى تغيير نظام الحكم في البلاد الا بتغيير الحياة الاجتماعية «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» .

وبينما هذا الفكر يختمر ولما يبن عند الحداد قدم محمد علي ابن المختار من المانيا بعد ان اتم بها تعلمه في الاقتصاد السياسي وجاء يدعو لعمل اقتصادي هو سبب نهوض الامة . وبعد التامل من

الحالة بتونس قرر ايجاد تاسيسات تعاونية لتسهيل العيش على الطبقات الفقيرة .

وكان الحداد الذي اطله من حامة قابس كمحمد علي قد اجتمع بهذا الاخير مرات عديدة وراى في فكرته الايجابية خدمة صالحة للوطن واختارها حتى على نفس الدستور ، فاشتغل معه بتكوين شركة «التعاون الاقتصادي» وتحرير قانونها الاساسي ثم قاما معا بالدعاية لها وفيما هما كذلك اذ عثرا بعملة الرصيف في حالة اعتصاب فال الامر الى اشتغالهما بهم بما ادى الى الاهتمام بمسالة العملة عامة بالبلاد وتاسيس «جامعة عموم العملة التونسية» .

حياتـــه التعاونيـــة

لما قدم محمد علي الى البلاد التونسية بعد اتمـــام دراستـــه بالمانيا كان يريد ان يشتغل بتاسيسات اقتصاديـــة ، ويحتمـــل ان يسلك احد طريقين فطريقه الاول هو جمع راس مال ذي اهمية مـــن ماليين يكون به لهم مشروعا ماليا لحسابهم ، والمسلك الثانـــي ان يجمع من الطبقات الفقيرة بواسطة الاكتتاب باسمهم جملة قليلة من المال يكون لهم به مشاريع صغيرة تحسن حالتهم . وقد سلك لاسباب عديدة تتعلق اهمها بحالة البلاد من الثروة وبنفسية المتولين المسلك الثاني .

وكان يريد «تاسيس شركات تعاونية وزراعية وصناعية وتجارية ومالية في اهم نقط المملكة يكون على راسها الشبان الوطنيون الذين يتفقون في روح الاخلاص والغاية . فيمكن تحضير هذه الجمعيات (1) المستقلـــة بقـــوة نموها التدريجـــي الى الانضمام لبعضهـــا فتشكـــل ادارة عامة تنظر في التوازن العام بينها وتسييرها لغاية منفقة» (2).

---

(1) كثيرا ما يستعمل الحداد كلمة جمعية تعاونية للدلالة علـــى الشركـــات التعاونية وقد يرد ذلك في اقلام كثير من الكتاب وارى ان سبب ذلك هو من ترجمة كلمة SOCIETE الفرنسية التي تدل على كليهما ومن جهة اخرى فان الكتاب غير المترجمين يرون الغرض الـــذي فـــي الشركات التعاونية كافيا لاطلاق اسم الجمعية عليها . (د)

(2) الحداد : العمال التونسيون . ص . 33 الطبعة الاولى ـ مطبعة العرب تونس 1927 .



محمد علي

1893 ـ 10 ماي 1928

وانتهى الامر بتاسيس شركة التعاون الاقتصادي التي هـي شركة تتجر في مواد المعاش وحاجات المنازل فقط وقد اختير الابتداء بها على هذا الوجه لان الحاجة للمعاش تتناول عمـوم الطبقـات خصوصا الضعيفة اذ كانوا هم الذين يتالمون بوجه خاص من غلاء المعاش واحتكار اسواق التجارة له .

وبعد تدوين القانون الاساسي لهذه الشركة بواسطـة لجنـة متركبة من السادة : الحبيب جاوحده ، والعربي مامي ، والطاهر بوتورية ، والطاهر صفر ، والطاهر الحداد ، ومحمد علي ، أجتمعت يوم 29 جوان 1924 جلسة عامة للتاسيس والانتخاب والمصادقة على القانون الاساسي بقاعة الخلدونية وتاخرت الموافقة على القانون الاساسي ليوم 6 جويلية فتمت المصادقة عليه في مرسح ابن كاملـة واخذت اللجنة المنتخبة برئاسة محمد علي تعقد الاجتماعات المتوالية في كامل جهات العاصمة لبث دعوتها ونشر اوراق الالتزام بالاسهم بين العملة والمحترفين الصغار .

واذ كنا بصدد بيان اعماله في التعاون فمن المناسب ان ندرج هنا خطبة منه القاها بالخلدونيـة يوم 29 جـوان 1924 في تاسيس جمعية التعاون الاقتصادي ولا شك ان تاسيسـات من هـذا النـوع وأجبة وستشتغل بها البلاد طال الزمان او قصر فاعادة نشر مـن هذا القبيل لا يكون عديم الفائدة .

اخواننا الفضلاء :

انني من صميم قلبي احيي هذا الجمع العظيم لانني اقرا فيه سور الامال الباسمة ثم لي كلمة اقولها عن جمعيات التعاون الاقتصادي :

تعتمد جمعيات التعاون الاقتصادي في بدء تكوينها على المادة

فتجمع راس مال حسي ، غير انه لا يكون من غرضها ان تستحصل بواسطته على ارباح عظيمة توزعها اخر السنة على جيوب مشتركيها وتسعى بكل وسيلة لتحقيق هذا الغرض فتنتظر بما عندها من السلع اوقات اشتداد الحاجة اليها وتشتري سلع البائعين الصغار لتحوجهم الى شرائها بارفع ثمن منها او من غيرها كما تفعل ذلك الشركات التجارية حيث لا هم لها الا التحصيل على الارباح المالية العائدة الى اشخاص واضعي راس المال وان اضر ذلك بعامة المستهلكين الذين هم مصدر ارباحها . اما جمعيات التعاون الاقتصادي فغايتها الوصول الى امرين عظيمين : امر مادي وامر معنوي وهما مرتبطان ببعضهما احكم ارتباط فالمادي هو تخفيف وطاة المعيشة وكسر حدة الاحتكار الشخصي بتوفير المواد اللازمة لحياة مشتركيها وبيعها لهم باثمان نازلة عن السوق مع ربح مناسب لحياة الجمعية ونموها تستخلصه من اختصار وسائط البيع والشراء او حذفها عند الامكان . وهذا الربح بعد تصفية الفائض منه يستعمل في تكبير مشروع الجمعية كانتقالها من شراء مادة حاضرة الى انتاجها بنفسها مثل السميد تنتقل من شرائه حاضرا الى تاسيس معمل لتحويل القمح له . وبالطبع تحتاج في تاسيسات كهذه الى مديرين وايدي عاملة وبهذه الصورة يمكن انقاذ كثير من افراد الامة الذين افسدتهم البطالة او ضاعت مواهبهم باستعمالها فيما لا يطابق استعدادهم والامر المعنوي هو الاعظم اهمية في التعاون الاقتصادي ويعد من خصائصها : هو العمل الدائم لتربية الروح الاقتصادي بنشر المبادىء الاقتصادية وافهام الناس ضروب المعاملات العصرية واصولها ونتائجها المتنوعة ويكون هذا بمحاضرات ومسامرات ونشرات خاصة ودورية ليكون عامة المشتركين على شيء

مفيد من المعرفة والبصيرة في سير الشؤون العامة وخصوصا فيما يؤسسون ويؤيدون من المشاريع ويمكنهم عند ذلك ان ياتوا بجهود عظيمة تكون الوسيلة الفعالة في حياة المشاريع ونجاحها الكبير وهذه الغاية اعظم غايتنا في المشروع وسترونها منصوصة في القانون الاساسي عندما يسرد عليكم ، ان المشاريع كافة اذا اقتصرت على جهد المامورين فيها دون أن تعتمد على جهود الجمهور الذي يشترك فيها ويعمل لفائدتها عن بصيرة وكفاءة لا يكون نصيبها الا التقهقر والانحطاط الى ان تصل الى الموت النهائي وهذا ما وقع في شركاتنا التجارية فانها باستغناء المنتخبين فيها عن جمهور المشتركين واقتصارهم في تسييرها على افكارهم واميالهم الخاصة تدحرجت الى دركات الانحطاط وفيها من أفلست واقفلت ابوابها دون ان تجد من يحميها من جمهور المشتركين وهذا يرجع الى نقص عمومنا في تقدير قيمة المشاريع وفقده المعرفة الكافية لحماية مشاريعه وصلاح ما فسد من شؤونها وتتبع اعمالها وتصرفات المامورين فيها وهذه هي العلة الاطلية في تاخر مشاريعنا وخروج المديرين لها عن الحدود الواجبة ولا من حسيب ولا من رقيب فتجدهم يؤخرون الجلسات العامة عن مواعيدها القانونية وأذا حضر جمهور المشتركين في الجلسة العامة هيؤوا له من الاوراق ما لا يفهمه حق الفهم فلا يسهل عليه ان يناقش وكثيرا ما يتهيب اشخاص المديرين للشركة او الجمعية فيظل ساكتا حتى ينقضي الاجتماع . وهذا ما افقدنا حرية القول وحرمنا من لذة المناقشة في امور حيوية لنا وتركنا بعيدين عن تدبير شؤوننا وادارتها بانفسنا وعودنا بالاهمال والاتكال على الغير وهذه الحالة هي التي تكونت فيها شركتنا التجارية ومرت في طريقها غير مكترثة بها او حاسبة لها حسابا . اما جمعيات

التعاون الاقتصادي فاول غرض اساسي لها هو مقاومة هذه الحالة الساقطة والسعي في تاهيل الجمهور بكل الوسائل المنتجـة حتـى يسير مشاريعه بقوة منه وتلك الوسيلة العظمى للنجاح . وايضا من اغراضها الاهتام بالنشاة التي تتكون حتى نجد منها رجالا يمكنهم القيام بهذه الاعمالوتسييرها بعلم واسع واستعداد عظيم . ثم ان من مبدا جمعيات التعاون الاقتصادي ان تهتم بمساعدة التعليم العام وسائر المشاريع الخيرية وستكون جمعيتنا هـذه طبـق قانونهـا الاساسي دائبة على السعي لتحقيق هذه الغاية الكبرى بفضل الجهود المتظافرة من الجميع والله الكفيل بتحقيق امالنا (3) .

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

(3) العمال التونسيون ص · 35 وما بعدها · (د)

حياتـه النقابيـة

سيقول لنا الحداد يوم اخذ يناقش الحاملين عليه من اجل فكرة كتابه «امراتنا في الشريعة والمجتمع» مناقشة مكتومة جبرا :

ينتج الغير كل رزق ويثري — في ثرانا ونحن كالاشباح
.. نحن نحيا بلا ضمير ولا ما — ل ولا حرمة ولا امال
غير خبز يلين من جوع بطن — وكساء يخفي افتضاح الحال
.. انت يا شعب ما لك اليوم خل — غير غاو او جائع محتال
يرصد العيش عاجزا عنه الا — من طريق المخادع الدجال
.. لعن الله خبزنا فلكم عا — د علينا بالذل والاتكال (1)

ويقول في قصيده : ضحايا الماضي (2) :

ان ساداتنا اضاعوا تراثا — انهم مثلنا كسالى حيارى
سيموتون مثلنا في لظى الجو — ع سكارى وما هم بسكارى
في الجرايات همهم ومناهم — ونراهم لخيرنا انصارا
سنرى الخبز كلنا عن قريب — نائيا كالنجوم في الافلاك

ومن قصيدة أخرى له بعنوان ظل الموت (3) :

---

(1) من قصيد له بعنوان «الجرايات» ختمه في 11 افريل 1933 . لم يسبق نشره وهو في 60 بيتا .
(2) ختمه في 21 فيفري 1933 .
(3) ختمها في 17 اوت 1932 .

وهذي مزارعنـــا في بـــوار كذاك صناعاتنـــا في انصـــرام
وتجارنا ركدوا تحت سقـــف يدوسهم الموت دون احتـــرام

وكم له من قصيد اخر تعرض فيه للحالة الاقتصادية بصفة عامة وصور فيه خيبة التونسيين من الوجهة الاقتصادية خيبة تامة ويقول لنا في كتاب «العمال» :

«ان الانقلاب الاجتماعي الذي يمكن ان يهيا له ببث الـروح الثورية لا يوجد من دواعيه اليوم شيء في المملكة التونسية التـي لم تاخذ لحد الان شكل التطور الاروبي في تنمية الثـروة وتنظيـم مواردها واتساع اعمالها ، فالتاجر التونسي باستثنائنـا لبنـي اسرائل لا يزال كما هو قبلا اخر من يبيع في دكانه الضيق المظلـم المضروب على طريقه سقفا خشبا او بناء سميكا ، واكبر صناعنـا ثروة واعمالا لا يزيد عماله عن عشرة من الناس في دكانه ومثـل ذلك او ما يقرب منه ما يقال عن انشط فلاح تونسي في مزرعته وبعد ذلك فلا شيء لنا ، فاين نحن من المناجم والمصانع والمتاجر التي تضم في جوفها مئات والاف العمال فيها يعملون ومنها يطلبون العيش ؟ (4) .

والذي نريد ان ناخذ من هذا كله هو هذه الخيبة التي اثرت في نفسية الفقيد تاثيرا كبيرا ولا شك ان لهذه الخيبة اسبابها ولم يكن الفقيد ليجهلها ومن بين العوامل التي حققتها الاستعمار وعدم قبول التونسيين للتطور في الوقت الذي لزم هذا التطور للذهنية الرجعية التي بثها فيه شيوخ العلم الذين يصفهم بالجمود كما يظهر ذلك في شعره .

---

(4) العمال ـ ص 121 ـ (د)

ان هذه الخيبة فعلية ولقد كانت نتيجتها ان التونسيين في عمومهم فقراء معدمون يتطلبون العيش من المستعمرين بصفة اجراء عندهم على انواع مختلفة ... وليس احد يعترف بالواقع كالحداد .

ولما قدم محمد علي بن المختار من المانيا واراد الاشتغال بامور اقتصادية لم يجد بالبلاد بنوكا ولا مصارف ولا تجارة كبرى ولا شركات تجارية ذات اهمية ووجدها بلادا فارغة من كل شيء فاراد تكوين بعض الشيء وبعد المداولة والتفاهم واخذ اراء جميع الناس تقريبا ودراسة الحالة لم يعن له شيء الا تاسيس شركة تعاونية للاستهلاك على وجه الابتداء واذا كان التاسيس على ذلك الوجه فلان المؤسس محمد علي لا غير .

والحقيقة ان ايجاد شركة تعاونية للاستهلاك يمكن ان يقصد بذاته في تونس كغاية كبرى ونجاحه عملية لم تكن باليسيرة .

ان «محمد علي» لم يكن الا رجلا وطنيا والحداد الذي يعرف الناس معرفة صحيحة وخالط محمد علي وترجم له في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» قد خصص فصلا لشعوره الوطني (5) ولكن وطنية محمد علي تتاثر جدا «من مناظر البؤس والفاقة» ويقول الحداد عنه «انه اذا ذكر البؤس فهو اغوص سابح في ابحاره واقوى مصور يريك الحقيقة الرائعة الاليمة ليثيرك منها الى طلب الخلاص» (6) .

ولما اخذ الحداد يبين الغاية من الجامعة ، وحالة البلاد اليوم ذكر في النهاية ان الغاية هي الاصلاح .

(5) العمال — ص 129 — (د)
(6) العمال — ص 150 — (د)

فكل هذا يدل على نفس وطنية لم يتهيا لها العمل الذي تريده والذي خلقت له ولو ان التونسيين كانوا على درجة اخرى من النجاح الاقتصادي لكان محمد علي مدير مصرف او شركة كبرى او بنك او صحيفة مالية ولكان عضوا او رئيسا بالحجرة التجارية مثلا عوضا عن ان يكون نقيبا لجامعة عموم العملة التونسية . انما يلزم لذلك ان لا يكون البؤس منتشرا بتونس على ما هو عليه وان يكون بيد التونسيين مال ووسط مالي هما ميدان الرجل في طبيعته .

فبعد ان طاف محمد علي على الاعيان واصحاب الاموال ومديري المشاريع على ما هو موجود منها بتونس صدف عنها جميعا وتوجه نحو الطبقات البائسة الفقيرة يريد ان ياخذ منها على فقرها شيئا يحسن به حالتها نوعا ثم يستمر على ذلك الى ان يكون من اناس ادركوا الحضيض في البشرية رجالا عاملين صالحين محتفظين بكرامتهم وعزتهم .

فلا شك انه ازاء الحالة الموجودة بتونس والتي يتنبا لها الحداد بان ساداتنا :

سيموتون مثلنا من لظى الجو ع سكارى وماهم بسكارى (7)

وانـــا :

سنـرى الخبـــز عن قـــريب نائيا كالنجوم في الافلاك (8)

تكون جامعة عموم العملة التونسية هي المؤسسة التي تليق بالبلاد لانقاذها على الاقل من ذلك الجوع خصوصا اذا لم يكن القصد منها ادخال حرب الطبقات وانما هو الاصلاح .

(7 ـ 8) من قصيد «ضحايا الماضي» ـ م ـ

ولا يمكننا تفسير النجاح الذي حصلت عليه الجامعة في أمد قليل بجميع الاوساط العاملة بغير موافقة نوع التاسيس لحالة البلاد وشخصية محمد علي الذي كان العامل الفعال فيها والتي انتهت الجامعة بانتهائه .

ولا شك ان مؤسسة شعبية كجامعة العمال ينخرط فيها كل الناس تحوي بين جنبيها بطبيعة الحال افكارا اخرى قد تريد ان تتصارع مع افكار المديرين لشؤونها فقد انخرط فيها فريق من الشيوعيين ولم يكونو لينسوا مبادئهم بسهولة من حرب الطبقات مثلا وجماعة من الوطنيين اتى بهم حب مقاومة النفوذ الفرنسي الذي لم يكن غاية ابدا للجامعة .

لقد كان بعض الذين كتبوا في تاريخ افريقيا الشمالية من الافرنج قد قاربوا بين حركة دينية مسيحية قامت قبل الاسلام هي الدوناتيسم وحركة اخرى دينية ايضا قامت بعده ولكنها اسلامية هي حركة الخوارج وقد كانت الحركتان متفقتين في الخروج رغما عن البعد في الزمان والعقيدة ... وقد تحدث ابن خلدون عن هذا الموضوع فيما يخص الخوارج .. وان الثورة البربرية على المبدا الديمقراطي ثورة سياسية واجتماعية في ان واحد ولم يكن الدوناتيسم غير ذلك فقد كانت ثورة الرعاع الذين زهدهم ، نتيجة للحرمان اليومي الذي يقاسونه ووراء هذا الزهد تجد الرغبة والجشع الانساني قائمين .

وقد كانا معا ثورة بربرية ضد الحاكم الاجنبي المتسلط على البلاد وارى انه من الممكن جدا تقريب الحركة النقابية التي قام بها محمد علي من هاتين الحركتين فالفكرة النقابية تقوم على مبدا شعبي

حقيقة وهو يتوجه للمستضعفين من الناس المحرومين من لذة الحياة التي يرغبون في تحقيقها لانفسهم بواسطة الكفاح ولم يعدم الوطنية التي تجعله مخالفا للمحتل الا ان الفكرة الجديدة تمتاز على سالفتها بكونها لا تتلبس بالدين وانما اكتست حلة عصرية من الكفاح وهو ابعد لها من التعصب الذي كان يسوق اجدادنا للدوناتيسم او الفكرة الخارجية .

على ان الحركة النقابية تختلف عنهما اصليا من جهة اخرى هي ان الحركة الجديدة ترمي الى الاصلاح والبناء وليست حركة سلبية قامت لمجرد المعارضة .

والحقيقة من جهة اخرى ان اتساع الحركتين القديمتين لا يمكن ان يقاس بالحركة النقابية على الاقل الى حد ما كان منها الى الان كما ان نتائجها الاجتماعية في التاريخ لا تقابل بما نتج عن الحركة النقابية . الا ان هذه الحركة لم تنقض بعد وهي لم تزل في دور الطفولة واظن انه اما ان تكون الثروة العامة بالبلاد بيد التونسيين وحينئذ تتكون فيهم النقابات كمقاومة راس المال على ما هو الحال باروبا ويكون في البلاد صراع هاتين القوتين الى ان يفعل الله ما هو فاعل او ان يستمر هذا الحال على افلاس التونسيين وتجمع راس المال بيد الاجانب فتصبح الحركة النقابية عاملة ضد راس المال وضد الاجانب مصطبغة في ان واحد بالصبغة القومية وفي ذلك يكون تصادمها مع الاستعمار خاصة ولا ادري ماذا تكون النتيجة لو ان الحركة اتسعت كالدوناتيسم او الفكرة الخارجية .

وبعدما بينا من اسباب ظهور الفكرة النقابية في تونس لحالتها الاقتصادية نرجع لنشوء هذه الحركة على يد محمد علي .

ان الطاهر الحداد مؤرخ هذه الحركة واحد دعائمها لم يهمل تاريخ ذلك في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» ، فبعد ان ذكر رغبة محمد علي في الاشتغال بالتاسيس الاقتصادي وتقريره الابتداء بتاسيس شركة تعاونية للاستهلاك وشروعه بالاعمال التاسيسية لذلك المشروع والدعاية له قال :

« ومن ذلك انها (اللجنة الوقتية لتاسيس الشركة المشار اليها) عقدت اجتماعا لعملة رصيف العاصمة لافهامهم معنى المشروع وحثهم على الاشتراك فقبلوه باستحسان عظيم واخذوا يكتبون اشتراكاتهم بسرور وابتهاج ظاهر في ملامحهم اذ اعتادوا ان أناسا من غير طبقتهم يشعرون بالامهم ويخطبون بها عليهم كانهم عاشوا فيها ثم يدعونهم لما يزيل ذلك عنهم ، ولقد خطا المشروع في الدعاية خطوة كبيرة وكاد ان يصل دور انجاز العمل لولا ما اعترض ذلك من حدوث اعتصاب برصيف العاصمة . كما كان مبدا لتاريخ جديد لعمال المملكة التونسية تاسست فيه عدة نقابات في بعض مدنها ذات الارصفة البحرية وقامت على ذلك التاسيس جمعية عامة هي «جامعة عموم العملة التونسية» (9) .

وارى ان ليس من اللازم وآنا اترجم لشخص ان اتي على تاريخ هذه الحركة بعد ان ارخها الفقيد بنفسه على ما ينبغي في كتاب خاص اشرنا اليه وانما الذي يجب هو بيان الدور الذي قام به الحداد في جامعة عموم العملة التونسية والذي اغفله الحداد في تاريخه لانه يقتضي التحدث عن نفسه ومن اراد معرفة الحركة النقابية نفسها فليراجع الكتاب المشار اليه .

---

(9) العمال ـ 44 ـ (د)

وخلاصة هذه الحركة ان عملة رصيف العاصمة اعتصبوا واضربوا عن العمل وكانوا يعتصبون ولكن اعتصابهم هذه المرة اثار اهتمام محمد علي فجر اعتصابهم الى اعتصابات اخرى في ارصفة بنـزرت وغيرها وانتشرت الحركة بسرعة عظيمة في هذه المدينة وكـاد ان يضرب عن العمل بها جميع العملة ومن ثم تاسست فيهـا نقابـات عديدة كما تاسست نقابة بفيريفيل (10) واخرى بمـاطر ونقابـات اخرى باحواز بنزرت وتاسست بتونس نقابـات لعمـال السكـك الحديدية ولعمال سوق الحبوب وعملة الشاشيـة وعملة المطـاحن وعملة نسج الحرير اليدوي ونقابة لعملة الترمواي ونقابة لعملة نسج الحرير الميكانيكي ونقابة البرانسية واخرى للسراجيـن وكذلـك تاسست بحمام الانف نقابة لعملة الجير والسيمان وتاسست نقابات اخرى بسوسة وصفاقس والمتلوي وقفصة فشملت الحركـة المملكـة التونسية من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب وذلك بفضل النشاط الذي بذله النقيب العام محمد علي والدعاية الواسعة جدا التى كانت تقوم بها لجنة الدعاية التي كان على راسها الطاهر الحداد والسيد المختار العياري .

وقد كان الاشتراكيون في فرنسا قد حصلوا على اغلبية فـي الانتخابات العامة سنة 1924 وكان لهم اتحاد نقابات بتونس على راسه م. دوريل الاشتراكيوهم يريدون انلايخرج العلمة منايديهم فامتعضوا من وجود جامعة تونسية للعمال وادعوا ان ذلك تفريق للعملة وتوزيع لجهودهم يجب اجتنابه ولما لم تفد محاولة اقناع العملة التونسيين بهذه النظرية استقدم اتحاد النقابات النقيب العام الفرنسي م . جوهو

---

(10) مدينة منزل بورقيبة اليوم .

وحاول من جهته اقناع العملة التونسيين بنظرية الاتحاد واستعمل في ذلك حتى التهديد . ولما رفض العمال التونسيون نظريته الاتحادية تداخل مدير البوليس من اجل قبولها واخذ في مقاومة اعضاء الجامعة ومنعهم من الاجتماع حتى يقبلوا الانخراط في النقابات الفرنسية . وقد احتجت الجامعة التونسية على هذا الصنيع واستمرت تقاوم حتى السلطة الى ان القي مديروها بالسجن وحوكموا بتهمة التامر ضد امن الدولة وصدر الحكم بالنفي 10 او 5 سنوات .

هذا كان ملخص الحوادث فما هو الدور الذي قام به فيها الطاهر الحداد ؟ .

صحب الفقيد المرحوم محمد علي من حين قدومه الى البلاد التونسية من المانيا التي قصدها لدرس الاقتصاد السياسي وقد كان قدم الى تونس في اثناء دراسته فتعرف به الطاهر الحداد اذ ذاك ، وفي المرة الاخيرة حيث اتم محمد علي دراسته ونوى الاستقرار بتونس لازمه الحداد . وكانا يقضيان غالب النهار وفترة طويلة من الليل معا وكانهما رجلان خلقا ليكمل الاحد منهما الاخر . فمحمد علي رجل العمل والطاهر الحداد رجل الفكر الثاقب والرصانة . وقد صادفا فيما سوى ذلك الاتفاق التام تقريبا في اخلاقهما فهما رجلا صبر وصلابة فيالحق وقوة الحجة واخلاص وعزم وصراحة وهما اذا اختلفا لم يكونا ليتفقا بسهولة ويحدثنا الحداد عن زميله فيقول :

«ومع حبه لتقادح الاراء فقد كان شديد التمسك برايه يسير في طريق التغلب بشدة على مشاركه في الراي ومن الصعب ان ينقاد لغيره لشدة اعتداده برايه ، وقد يرجع في احيان عدة الى

راي غيره ولكن يندر جدا ان يرجع في ذلك اثناء احتداد المناقشة التي له فيها نفس حار قد لا يتحمله منه الا اصدقاؤه ومحبوه» (11) .

ونلمح هنا الحداد حاضرا لمناقشة بين محمد علي وغيره ملازما الصمت او مهدئا للمناقشة وهو يرى خلاف محمد علي ثم ينتظر الفرصة فيما بعد لمذاكرة محمد علي في الموضوع وارجاعه عن رايه من دون احتداد وهكذا ينجح الحداد «في احيان عدة» .

وقد نجد مثالا من هذا التعديل في افكار النقيب ص 33 من كتاب العمال عندما «كان محمد علي ينوي تاسيس شركات تعاونية زراعية وصناعية وتجارية ومالية في اهم نقط المملكة يكون على راسها الوطنيون الذين يتفقون في روح الاخلاص والغاية ... الى ان انتهى الامر الى تاسيس جمعية التعاون الاقتصادي التونسي لتتناول في بدئها التجارة فقط في المعاش وحاجات المنازل» .

وهكذا درس الحداد من جديد مع محمد علي الوسط التونسي كانه قد غاب عنه سنين طويلة واختلفا الى كل الذين لهم عناية بحالة الشعب التونسي فترددا على الشبيبة في مواقع اجتماعها وفي تاسيس مشاريع خاصة حتى وقع اختيارهما على جمعية التعاون الاقتصادي فعملا معا في تحضير القانون الاساسي وفي الدعاية لها وجمع الناس حولها للاكتتاب بالاسهم وفي عقد الاجتماعات التحضيرية للتاسيس وفي الخطابة للمشروع وتحرير المقالات فيه حتى يكون الناس على بينة من الاغراض التي ترمي اليها الشركة .

---

(11) العمال ـ ص 131 ـ (د)

فلما تحول العمل الى النقابات وترك مشروع التعاون الى فرصة اخرى انتقل الحداد مع محمد علي لذلك ايضا واخذا يعملان العمل المتحد الذي قاما به لشركة التعاون الاقتصادي . وهذا العمل اكبر من سالفه بكثير فكانت الاجتماعات تعقد من الصباح الى منتصف الليل والفرقة العاملة مع محمد علي تقسم العمل بينها على الصباح ثم يتوجه كل الى شغله وتجتمع قبل النوم لعرض ما تم على الجماعة والمفاهمة فيما تجب المفاهمة فيه . وكان اكبر وقر (12) من هذا العمل على محمد علي ويليه في ذلك الحداد ثم تتقاسم البقية الاعمال الاخرى كل على حسب مقدرته وجهوده .

فتاسست بذلك النقابات العديدة التي نجد ذكرها في كتاب العمال واديرت كذلك اعتصابات شديدة وكافح الجماعة القوات المضادة على ذلك النحو ، وكان العمال في كافة المملكة يتناهشون النقيب ويطلبون حضوره ويريدون تاسيس نقابات عندهم وقد يبداون في الاضراب في انتظار المعاضدة من الجامعة . ولم تكن تلك الجامعة لتبخل عنهم بتلك المعاضدة ابدا ولا يتاخر النقيب عنهم الا اذا شغل بمثل ما يطلبون منه ريثما يتم هذا الشغل وكان الحداد في ذلك كله اول شخص بعد محمد علي واليه يرجع الفضل في تعديل افكار النقيب الاول في مسائل عدة .

ونجد في كتاب («العمال» ص 33) ذكر هذا التعاون الذي قام بين محمد علي والطاهر الحداد . فالطاهر الحداد الذي أغفل في ذلك الكتاب دوره عن قصد في شركة التعاون الاقتصادي والجامعة

---

(12) الوقر : الحمل الثقيل .

قد رشح هنا قلمه فقال :

«من يوما جاء محمدعلي ونحن نتفاوض ونبحث عنعملاقتصادي عام الفائدة يكون مطابقا لاستعداد الامة في ماليتها وافكارها ...» وذكر تعديل افكار النقيب في التاسيس الى ان قال : «وانتهى الامر الى تاسيس جمعية التعاون الاقتصادي التونسي» .

فكلمة «نحن» هنا تدل على مقدار التشارك الذي قام بين الرجلين وهي وان كانت مبهمة نوعا هل يعني بها الكاتب نفسه او الجماعة فان الواقع هو ان الخوض قد تم بين جماعة ولكن اي فرد كان الملازم لمحمد علي والعامل معه على الدوام والمخلص له ولفكرته ومن غير الحداد كان ظاهرا في الراي والحجة ظهورا يستطيع به ان يعدل من اراء محمد علي «الذي كان شديد التمسك برايه يسير في طريق التغلب بشدة على مشاركه في الراي ومن الصعب ان ينقاد لغيره لشدة اعتداده برايه» .

ويقول بصفحة 34 «والمعاش يتناول عموم الطبقات خصوصا العمال الذين كنا ننظر اليهم في المشروع بصفة خاصة ولاجلهم تقريبا كان المشروع» .

فمن ثبت في الجامعة من الفرقة المشاركة لمحمد علي في جمعية التعاون غير الطاهر الحداد وهذه الفرقة معلومة فقد ذكرها الحداد (ص 34 ايضا) وهم الحبيب جاء وحده والعربي مامي والطاهر بوتورية والطاهر صفر وهم الذين شاركوا محمد علي والطاهر الحداد في تاسيس التعاون الاقتصادي ولا شك ان محمد علي والطاهر الحداد

هما اللذان كانا ينظران للعملة بصفة خاصة في تاسيس هذه الشركة التعاونية بدليل انهما هما اللذان ثبتا في الجامعة .

وبعد ذلك النشاط الذي بذله الحداد وقع الاجتماع في محل احد العمال في مساء 3 ديسمبر 1924 للاعلان بالجامعة وتعيين اعضاء لادارتها مؤقتا وتدوين قانون اساسي يصادق عليه مؤتمر العمال فيما بعد وقصد الاجتماع الطاهر الحداد قال «حضرته بصفة حبيب للاعضاء ومساند للحركة عن بعد لا عن مباشرة فكان من الغريب الفجائي انهم الزموني بقبول العضوية في دائرة الدعاية للجامعة فكان لي في ذلك اعظم شرف عساني ان اقوم له ببعض الواجب» .

وهذا التصريح يظهر بجلاء نفسية الحداد في تهربه من الالقاب الرسمية فكما امتنع من ان يكون عضوا باللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي وكان «مساندا للحركة عن بعد لا عن مباشرة» فكذلك اراد ان يكون مركزه في الجامعة الا انه في هذه المؤسسة التي هي في جزء عظيم منها من عمل يديه والتي يجد فيها مثل محمد علي في الاخلاص والعمل والفكر والتي لها برنامج ايجابي في العمل لا يمكن ان تقاس مع الحزب الدستوري الذي يفقد كل ذلك فاعتبر الحداد «ذلك اعظم شرف عساه يقوم له ببعض الواجب» .

اما ان يكون ذلك من الغريب المفاجيء فلست ادري اذا من هم الذين يكون تعيينهم في الجامعة امرا طبيعيا لا يثير الغرابة بعد كل ما قام به الحداد لفائدة الجامعة . واذا قال الحداد انه استغرب ذلك فجيء به فظني فيه انه لم يكن ينتظره حقا ولكن اعتقادي انه

لم يكن احد في الحاضرين عدا محمد علي يستحق ان يدخل اللجنة قبله . وعلى كل حال فقد تعين الحداد في لجنة الدعاية وليس اقدر منه على هذا العمل .

فالحداد احسن الناس في الاقناع يبتدىء الامر من ابسط اوجهه ثم يترقى رويدا رويدا الى ما تشعب منه حتى لا يخرج من الموضوع الا وقد افهم مخاطبه . وليس يقف امام الحداد الا شيء واحد هو التعنت او سوء النية . فاذا لم يرد المرء ان يفهم فلم يكن الحداد ليفهمه ولن يفهمه غير الحداد ايضا . وكثيرا ما رايت الفقيد يدرس اوجه الاقناع في امر من الامور ويدرس التدرج من البسيط الى ما فوقه بعناية ليس فوقها عناية وقد يضع سلمه باعتبار مخاطبيه ودرجة ثقافتهم . فاذا وردت فكرة ودرسها واقتنع هو بها واراد ان يفاتح فيها الناس يبدا بمناقشتها مع نفسه ثم يعرضها على خواصه ويناقشهم فيها وبعد ذلك يذكرها لغيرهم حتى يصدع بها للناس وقد علم معها طرق المناقشة فيها وهو كذلك في خطابته وكتابته .

وبالجملة فقد كانت الجامعة في انشائها وفي فكرتها نتيجة للتعاضد المتين الذي قام بين محمد علي والطاهر الحداد الى ايقاف الاول بالسجن بتهمة المؤامرة يوم 5 فيفري 1925 .

وفي يوم 21 فيفري 1925 اجتمع م . دوريل كاتب اتحاد النقابات الفرنسي بشخصيات تونسية تمثل الهيئات الاتية : الحزب الاصلاحي والحزب الحر الدستوري والقسم التونسي من المجلس الكبير الحكومي وكان موضوع الاجتماع هو النظر في الحملة الشديدة التي قام بها المستعمرون يصورون فيها البلاد التونسية

في حالة هيـاج خطير بمـا يمنع الاصلاح المؤمـل انجازه لفائـدة التونسيين وما يجب اتخاذه من الوسائل لمقاومة هذه الحملة «الا ان م . دوريل اغتنم الفرصة لافهامهم ان عقبة لا بد من تذليلها هي انضمام العمال التونسين تحت الاتحادية الفرنسية التي هي اممية ودرء العواقب الوخيمة التي تنجم من وجود جامعة العمال التونسية» وبعد مناقشة دارت في هذا السبيل ثم امضـاء المجتمعيـن دون م . دوريل على نص بلاغ نشر اولا بجريدة النهضة بتاريخ 22 من الشهر وهو هذا بالحرف :

ان الكاتب العام لجمعية اتحاد النقابـات استدعـي لحضـور الاجتماع فلم يخف عنه العواقب الوخيمة التي تنجم من وجود جامعة العملة التونسية تجاه اتحاد النقابات الاممية العامة ، وبين الفائدة التي سيحصل عليها العملة التونسيون من عدم قطع الوحدة ، وبعد المناقشة وتبادل الاراء قرر الجمع من تصريحه بانه ليس له سلطـة مباشرة على العملة لكنه عزم على استعمال قوة نفوذه بواسطة الصحافة والقول على نصح العملة التونسيين للانضمام لجامعة اتحاد النقابات (13) حتى تتم بذلك المشاركة في ميدان العمل .

الامضاءات : احمد الصافي ، حسن قلاتي ، صالح فرحات ، عبد الرحمان اللزام ، البشير العنابي ، محيي الدين القليبي ، الطـاهر

---

(13) ان الحزب الحر الدستوري القديم الذي افضى بهذه النصيحة لم يذكر ابدا كتاب تونس الشهيدة «الذي هو من تحرير الشيخ الثعالبي . ونجد في المطالب الملحقة بهذا الكتاب ما ياتي : (9) حق الاجتماع الصناعي للعملة والمستخدمين والمعلمين والموظفين ، حق الاعتصاب» .. فـاذا كان هذا الحزب يطلب للعملة الحق النقابي كاملا فالاجـدر بـه ان لا يستعمل نفوذه بواسطة الصحافة والقول على تفريق وحدتهم عندمـا اجتمعوا على اقوم المبادىء النقابيةالتي تتطبق مع مبادىء الوطنية . (د)

التوكابري ، محمد الجعايبي ، محمد شنيق ، احمد توفيق المدني ، بوبكر تريمش ، عبد الرحمان الكعاك ، الطيب الجميل ، الشاذلي القسطلي ، محمد الصالح ختاش .

وكانت غضبة مضرية غضبها الحداد على اثر نشر هذا البلاغ فقد راى فيه انه ضرب للمنكوبين من خلف واتحاد على العملة مع اضدادهم الذين يريدون ان يكونوا للعملة الفرنسيين حماية على العملة التونسيين وخيانة من جماعة كانوا يصرحون للنقيب العام بمعاضدة محققة .

وقد عبر الحداد عن فكره في هذا الاتحاد في قصيد له بعنوان «الخيبة» يصف فيه الزعماء :

وكانوا مع الاعداء في كسر وحدة	بها هدد العمال من كان جائرا
جرائم سموها اتحاد طوائف	ولكنه منهم ابان السرائرا
فلم نجن من ذا غير خزي اذلنا	جميعا وراس القوم ظل مكابرا

وكان الحزب الدستوري يتصل بالاحتجاجات من شعبه وينفصل عليه بعضها كما وقع بشعبة المركاض وهذا نص احتجاج هذه الشعبة:

لائحة الى اللجنة التنفيذية بالحزب الحر الدستوري التونسي .

بناء على ان اللجنة التنفيذية ليس لها الاستقلال وحرية العمل دون استشارة بقية الدستوريين والخضوع للاغلبية في المسائل الهامة غير الاعتيادية .

وبناء على ان المفاهمة مع الاحزاب المعارضة وتحرير اتفاقات وامضائها معهم من المسائل الهامة غير الاعتيادية .

وبناء على ان حرية المؤسسات مسالة جوهرية وهامة ايضا .

وبناء على ان اعضاء اللجنة التنفيذية امضوا على ما يناقض صريح نص الفصل السابع من حرية المؤسسات .

وبناء على الانزعاج والتشويش العام الظاهرين على افكار عامة الدستوريين من جراء هذه الحالة .

فان الاحرار الدستوريين الممضين اسفله يطلبون من اللجنة التنفيذية وبكل تاكيد ايقاف جميع مفاهمتها مع الاحزاب الاخرى وعن العمل بتعهداتها معهم الى ان يجتمع مؤتمر عام تستدعى له كافة الشعب واعضاء اللجان سواء في ذلك اعضاء نشر الدعوة وغيرهم وان يكون هذا الاجتماع في اقرب وقت . ولا يلزم ان نلاحظ لكم ان لنا احساسات وطنية وغيرة على بلادنا مثلكم ولنا افكار في هذا الشان لا نظنكم تستهينون بها وقد سعينا ونسعى بكل جهودنا في نهوض الحركة الوطنية ونموها الظاهر اليوم . لذا لا نظن انكم تعتبرون لائحتنا هذه من باب التهديد او سوء القصد نحو اشخاصكم فان المسالة اعظم واجل من هذه الاغراض وان رفضتم قولنا ولم تزنوه بميزان العقل والحكمة فانكم تكونون وحدكم المسؤولين على هذه الحالة وما ينجم عنها من الاخطار .

وتقبلوا فائق **احتراماتنا** .

في 25 فيفري 1925 وفي 20 شعبان 1334 .

ويلي ذلك امضاءات اعضاء الشعبة وغيرهم من ماطر والكاف وبعض المنخرطين بغيرها من شعب العاصمة وبالنادي المركزي .

وبهذه العملية البسيطة قضي على مؤسستين تونسيتين اعدتا للكفاح لان القضاء على الجامعة قد اصبح مؤكدا بعد ان نفضت جميع الهيئات في البلاد يدها من المؤسسين واعتبرت وجودها «عواقب وخيمة تنجم عنه» واما الحزب الدستوري فقد انفض من حوله كل من له شان في الكفاح وبقيت اللجنة التنفيذية محافظة على الاسم دون اي عمل الى ان قام الحزب الدستوري الجديد على ما تقرر بمؤتمر قصر هلال وتحداها ان تظهر من عملها شيئا بعد ذلك البلاغ فلم تفعل حتى افتك منها جميع الشعب تقريبا .

وعلى اثر ايقاف محمد علي اجتمع النقابيون التونسيون لتعيين خلف له فوقع اختيارهم على الحداد الذي لم يتمكن من العمل لما قامت حوله من الدسائس (14) ولما دخل من الضعف في صفوف العملة حتى انحلت الجامعة ولم يبق منها الا التاريخ الذي كتبه لها الحداد ونشره سنة 1927 بعنوان «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» .

وبمناسبة الكلام عن الجامعة نرى من الواجب ان نقول ان نازلة المؤامرة التي اثارها قلم الادعاء العمومي بالمحكمة الفرنسية ضد اعضاء الجامعة لم تكن الا من باب الاحتياط لما عسى ان يتسع من حركتها اذا اخذت شكل سابقتيها من حركة الدوناتيسم او الفكرة الخارجية اللتين شبهناها بهما .

---

(14) راجع خطاب عبد الرحمان عطية في الحفلة التذكارية للحداد 28ـ ديسمبر 1936 (د)

كان الفقيد عبد الرحمان عطية يشغل حذاء بسوق السراجين وفي اواخر حياته عمل كاتبا لدى بعض المحامين وهو من انصار الحداد ومن المتحمسين للنشاط النقابي ـ م ـ

فقد تخوفت النيابة من هذا المال . وقد يستنتج من هذا ما يراد ان يستنتج ولكن هل يفيد ذلك انه يحجر القيام بكل حركة شعبية في تونس خوفا من هذا المال .

ان ادخال الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية امر موكول بمقتضى المعاهدات الى الحكومة الفرنسية ولا تمكن لنا المناقشة فيها واظن انه يبقى لنا على كل حال الاشتغال باصلاح الشعب وافهامه وتكوينه في هيئات صالحة وقد ينتج عن ذلك امور كبيرة اذا اتسع نطاق هذا الاصلاح ولا شك ان ذلك قد يؤثر بالنهاية على شكل الحكومة والمعاهدات التي انما وضعت لحالة خاصة من حالات الشعب ولكن معنى ذلك على ما ارى ان ينسب للقائمين بالاصلاح قصد تغيير شكل الحكومة وتبديل المعاهدات فتلك غايات سياسية لا تدخل في نية النقابيين الذين لا يهمهم الامر الا من جهة واحدة هي اصلاح الشعب وتشكيله في انظمة صالحة تحقق له الحياة بحرية .

وقد راينا هنا ان نقدم دراسة لهذا الكتاب اعني «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » لانه من عمل المترجم له .

صدر المؤلف كتابه بمقدمة يقرر فيها ان الارض كانت حرة قبل ان تلد الانسان فلما جاءها تعاون اولا على انتاج ما يحتاجه منها وبدون شك ان اول وضع يد خاصة عليها للتملك كان بلا بيع وليس من المعقول ان يبيع الجميع مرتزقهم ما داموا يوفرون منه ما يلزمهم بالتعاون وما دام للاجيال الاتية حق فيه ولكن تفوق بعض البشر في العقل والجسم ادى الى حيازته مرتزق غيره وتحول بذلك الاشتراك الذي كان ينعم به الناس جميعا الى الاجارة بثمن بخس وازداد ثقل نير هذا النظام بتطور الحكم وتقدم العلم والمزاحمة الصناعية فعاش

العامل مغبونا في صحته وفي اهله وبنيه ولم تقم الحكومات بشيء لفائدتهم الا ما يرهبهم ويزجرهم وكـان من نتيجة ذلـك ان تدلـى الانسان في اخلاقه وتمرن على الكذب والنفاق ووضع الدسائس .

وكان العلماء الصالحون يقومون في ازمنة منقطعة يدعون الى التعاون والتاخي بين البشر عوض التغالب ولم يتهيا لهم الامر الى ان ظهرت دعوتهم قوية بالبلاد الاروبية .

فقد انتشرت المعارف اخيرا بهذه البلاد واشترك العمال في ثورات عديدة مع طبقات اخرى كانت تعدهم باقتسام المغانم فلمـا جاء وقت الاقتسام حددوا حرية القول والعمل وقرروا حرية التملك الخاص بما فيه من الميزات الا ان العمال استفادوا كثيرا من حرية القول والعمل التي حصلوا عليها بعد جهاد عنيف فتاسست الجمعيات الخيرية ثم الجمعيات والشركات التعاونية .

وكانت هذه القوى اصلا لاعـلان الحق النقـابي والضمانـات الاجتماعية للعمال وتحسين حالتهم تحسينا معتبرا ولا زال الكفاح مستمرا فقد اسس العمال اتحادا امميا عاما يوحد كلمتهم وانتشرت الفكرة النقابية بعد الحرب انتشارا هائلا فقد كان العمال المتنقبون قبل الحرب يعدون عشرين مليونا وهم قد بلغوا سنة 1920 خمسين مليونا وتمخض جهاد العمال وابحاث العلماء على كتـاب كـارل ماركس الذي عد غاية احلام الانسانية .

ثم عقد المؤلف فصلا اخر للحالة الاجتماعية والاقتصادية بتونس ولكم كنا نود لولا ضيق المقام ان نعيد هنا هذا الفصل برمته فهو لم يزل حقيقة في الحالة الراهنة كما كان قبلا ولكن ما لا يدرك كله لا

يترك كله فبعد ان بين خيبة الاقتصاد التونسي من زراعة وصناعة وتجارة والانحلال الذي تمكن من الفرق المنتجة التونسية قال :

«ان انشط فئة رابحة في البلاد التونسية لا سيما في العصر الحاضر هم اليهود ، وبصفة عامة فان رؤوس اموالهم نقدية وقسم منها يستعمل في ادانة الفلاحين والصناع ومن لهم املاك ثم ان حاصلات البلاد الزراعية يقع اصدارها على ايديهم ايضا تاخذ البلاد حاجتها من الواردات ويشركهم في ذلك طائفة من الاجانب ولهم دالة على البنوك ومنهم كثرة عمالها ... (15)

«كم ! وكم يلزمنا من المجلدات والتفكير العميق اذا اردنا ان نتحدث عن البيوت ، والحياة الزوجية ، وحظ الازواج اليوم من زواجهم ، واسباب التشويش العائلي ، وكثرة الطلاق ، وسهولة وقوعه فذلك ما يستدعي الجهود العظيمة والافكار العميقة في الحياة» (16) .

«ما اخطر واتعس الحياة التي نقطعها اليوم ، ويظهر انها لا تزال تنمو مع الايام الى افظع مما نقاسيه اليوم فلقد عض البؤس بانيابه الحادة المسمومة روح الامة وجسمها المنهوك فلا ترى الا منظرا اسود يملا العين حزنا وغما ووجوها مصفرة تعلوها كابة خرساء ، وهياكل شاحبة اضناها الجوع وضعف مواد العيش الذي يقتاتونه ، وثيابا مرقعة بكل الالوان واكثرهم متسولون فلا تجلس في احد الامكنة الا وتراهم يمرون بك على التوالي ، فراشهم الارض

---

(15) العمال ص 22
(16) العمال ص 26

صيفا وشتاء وغطاؤهم السماء ، فتراهم ملطخين ليلا في الشوارع أو الدكاكين المرصوفة على خفاف بعض الطرقات ، والسعيد من حصل منهم على ذلك وكثيرا ما نراهم يتزاحمون على تلك الدكاكين لضيقها عنهم ، يفجع منظرهم الغريب ، ويذيب من كان مثلهم كئيبا ، وكم من مناظر تسترها المنازل والبيوت وهي لا تبعد عن هذه المشاهد الا باحتجابها عن نظر العموم ، فلقد رايت وراى كثير من الناس ان اباء كثيرين كاد لهم الفقر واعيتهم طرق العيش فبعثوا بابنائهم الصغار وهم في سن التعليم يسترزقون لمساعدتهم على لوازم المعيشة فاندمجوا في صف الحمالين وماسحي الاحذية (الشياتين) » ... (I7) .

«يعتقد جمهور الشعب ان الامه والسقوط الملم به متات له بالاصالة من السلطة التي تحكمه ، فالزراع يشكو الغبن في صابته وضعف حاله ويعلق ذلك بالحكومة ، والصانع يشكو كساد صنعته وقتل الواردات لها وافلاسه بذلك ثم يقول كل ذلك من ظلم الحكومة ، والتاجر تحل ديونه وتمتنع البنوك الاجنبية من معاملته فتنصرم حاله وربما افلس اذا لم يجد ما يرهن او يبيع فيضيف ذلك الى ذنوب الحكومة ، والعمال المغبونون في اجورهم والبطالون كلهم يعتقدون ان انهزامهم في الحياة من الحكومة التي لم تعطهم المواد اللازمة لهم ولم تمنع عنهم الطواري التي تعترضهم في سيرهم ولم تعلمهم ما يحتاجون من العلوم ولم تجر العدل في حكمها عليهم . ولقد يكون لهم نصيب وافر من الحق في دعواهم ذلك على الحكومة فان الحكومات في قدرتها ان تبذل مجهودا معتبرا في ذلك السبيل متى

(I7) العمال ص 26 و 27 (د)

كانت صادقة في ضميرها ومخلصة لشعبها ولكن اي هذه الحكومات التي جاءت من نفسها مختارة الى الصدق والاخلاص دون ان تكون مدفوعة بتيار قوي من الشعب الذي تكاتف ضمن جمعيات حية تختلف طرقها في العمل وتتحد غايتها لارغام الحكومة على اعطاء نصيبها من الجهد لتحسين مؤسسات الشعب وحمايتها والرضوخ نهائيا الى سلطانه الشرعي الذي ما احتيج للحكومات الا لتخدمه ...» (18)

«وفي هذه الاثناء (اي اثر مطالبة الحزب الحر بحقوق سياسية بلا جدوى) بدا الشعب يشعر ان الحركة السياسية وحدها لا تكفي لافهام الحكومة ما يطلب الشعب منها بل يلزم ان تضاف اليها نهضة العلم والاقتصاد وتاسيس المؤسسات لذلك بصدق وعزيمة ... ولقد اخذ هذا الاستعداد ينمو كل يوم في البلاد وصار حديثا منتشرا بين الجماعات الى سنة 1924 فجاء في غرتها محمد علي ذلك الذي يعرفه اليوم مواطنوه قادما من برلين ... فلنتامل في النتائج والاعمال التي كانت عند وجوده» (19) .

ويلي ذلك تاريخ الحركة التي قام بها المرحوم محمد علي بتعاضد مع الطاهر الحداد سواء في شركة التعاون الاقتصادي او جامعة عموم العملة التونسية او الصراع النقابي الى القاء القبض على النقيب وتنفيذ الحكم عليه مع جملة المحكوم عليهم من اعضاء الجامعة عشية يوم 28 نوفمبر 1925 حيث اركبوا البحر الى ايطاليا منفيين من التراب التونسي والفرنسي وملحقاته وبذلك ينتهي الكتاب .

---

(18) العمال ص 31 .
(19) العمال ص 32 و 33 (د)

مـــوقفه في مسألة المـــرأة

بعد خيبة الحركة النقابية وتاليف الحداد لكتاب «العمـال» كتسجيل لها سنة 1927 بقي الحداد فارغ الشغل ولـم يبـق مـن المؤسسات التي عمل فيها سوى الحزب الدستوري الـذي حـافظ على حياته الاسمية وبعض نقابات لا تكاد ترتبط مع بعضهـا بسبـب واسفرت المعركة عن موت جامعة عموم العملة التونسيـة ومـوت جمعية التعاون الاقتصادي . وكان على راس الحزب الحر الدستوري السيد محيي الدين القليبي ولم يكن الحداد ليتفاهم معه بعدما امضى على ما سموه نصيحة للعمال وكان المنخرطون في الحزب الدستوري يطلبون اليه ان يرجع الى الحزب للعمل به فكان تـارة يجيب بـان ليس في الحزب عمل يبعث على النشاط ويبرر الانضمام اليـه ، اذا كان مخاطبه من الذين يفهمون هذا القول وتارة يتخلص بوسيلـة اخرى .

ولو آن الطاهر الحداد قصد في هذه الاثناء نادي الحزب الذي كان يجمع كل اسبوع عددا وفيرا من الناس ليعطوا من المخدرات القولية ما يسمح لهم بتهدئة اعصابهم طيلة الاسبوع لكان مـوقف الحزب معه فيما بعد غير ما وقع . فقد حمل كثير من الدستوريين موقف الحـداد السلبي ازاء الدستـور محل امسـاك عن العمـل

الوطني في حين القدرة عليه . وظن بعضهم ان له دالة كافية على الحداد تمكنه من الزامه بالمجيء «اخذا بالخاطر» فحاول ولم يفلح ... واخرون كان يعجبهم معسول القول الذي اعتادوا سماعه من خطباء الدستور ولم يهضموا ان الحداد يمسك عن امتاعهم بشهوتهم ولكن الحداد كان يقول لخواصه عندما يلح عليه في الحضور : «اني لا استطيع ان اخطب فيهم وماذا عساني اقول لهم ؟ فهل عندي عمل ادعوهم اليه ؟» وذلك من اعتقاده ان هذه الدعايات التي تقوم باسم الوطن مجردة عن كل تاسيس لا فائدة فيها والاولى بالقائمين بها ان يمسكوا عن التغرير بالناس فالحداد لم يكن ليقوم بدعاية من هذا القبيل .

اما السيد محيي الدين القليبي فقد كان في هذه الاثناء يرمي الحداد بمختلف الدعاوي فتارة يقول عنه انه يدس السم في الدسم وتارة يرميه بالهدم وافساد المشاريع وطورا يتهمه بالكفر والزندقة وحجته في ذلك بعض كلمات تنقل اليه تلفظ بها الحداد في مجالسه الخاصة من دون قصد الدعاية او ان اقتضى الحال تختلق عليه .

وقد كان الحداد تبلغه احيانا هذه الدعايات التي تقوم ضده ونجد لها صدى في شعره ـ قصيد (الخيبة 1929) اي قبل الكتاب واتهامه علنا بالالحاد :

على ان ذا في الشر لم يك كافيا	فزادو من التضليل زادوا مناكرا
راوا باسم دين المصطفى ان يتاجروا	فخافوا على الاسلام ان يتناثرا
وقد اشهروا الالحاد في كل حادث	كان الذي قالوا نما وتكاثرا
وانهم ابطال دين تالبوا	على دوسه كي يودعوه المقابرا

فهذا كفور ملحد حسبما اشتهوا وذلك للاسلام يرصد ماكرا
وعندهم التجديد كفر محقق وراي سفور البنت ايضا بلا مرا
وان يقتدى بالغرب في مدنية اقام بها ركن الحياة مغامرا
وقد حكموا وسواسهم في اصولها كان لهم رايا وعلما مناصرا
وحجتهم في ذاك دين محمد كانهم الدارون منه المصادرا
وما لهم من دين احمد ذرة ولكنهم يبغون منه مغاورا
يضل بها شعب فيمشي وراءهم ولن يفعلوا الا الاذى والمساخرا
تعاليت يا دين النبي محمد عن الختل اومن كان للختل ناصرا
ولكن قوما قد ارادوا بطونهم فنادوا بها دينا اضل المسايرا
فباسمك كم نذل تقنع فارتقى وكم بك من افك تعالى مفاخرا
يقولون للاسلام نبغي سيادة واعمالهم تهوي به متناثرا

ولم يسلم من الدعايات الخبيثة النفر القليل الذي كان مع الفقيد .

لقد بلغني ذات يوم ان الشيخ قاسم قد رماني بخلل في العقيدة وصادفته ذات يوم برمضان وكنت محتدا لا ادري لاي سبب وربما كان الصيام ذا دخل في الامر ومست المناسبة فقلت له أن مركز الحزب قد صار مصدرا للخبث واذ سالني وجه هذا الاتهام قلت له ان ذلك حق لانه صار ينشر الدعاوي ضد الناس وضد الحقيقة تشفيا فطلب بيانات كانه لا يحمل في ضميره اثما فقلت له ما بلغني وما تحققته من دون ذكر السند طبعا فانكر . وان كان من المستحيل علي ان اثبت له سندي لاسباب تمس بغيري فقد اكتفيت باظهاره الجبن في المعارضة وذكرت له اني لم اصدقه لان من نقل لي لا يكذب وانسحبت .

ومن الغد او بعد ذلك بقليل قابلته بدكان الشيخ صالح بن يحيى

(1) وتذاكرنا في الامر مرة اخرى وانكر من جديد فقلت له : يا قاسم . انت صائم وظني انك تحتسب صيامك الى الله لا تحرم نفسك لذائذ الدنيا من اجل عادة ورثناها من الاجداد فان كان صيامك حقا لوجه الله ، فتعال نتحالف ان لا نقول الا الحق اسالك فتجيبني بالصدق قال نعم . قلت والله لا اجيبك على ما تقول الا بالصدق وحلف كما حلفت ثم قلت له :

بالله عليك هل قلت في يوما من الايام شيئا يحوم حول اتهامي بخلل في عقيدتي . ؟

فسكت هنيهة وانا اقول له : لقد حلفت وانت صائم ، لقد حلفت وانت صائم ، اياك ان تقول غير الحق ثم قال :

هل تكلمت يوما في القران ؟

فقلت له قد تكلمت فيه كثيرا فلقد حفظته عن ظاهر قلب واعرف منه كثيرا ولكن ماذا قلت فيه ؟

فقال : هل قلت فيه شيئا يكره ؟

قلت لا والله لا ادري ماذا ولكن ذكرني لعل في الامر شيئا قد نسيته ووالله لو تذكرت شيئا لما انكرته .

قال : لقد تكلمت فيه بدكان الخميرى ؟

قلت : لا ادري قد يكون ولكن ليس بمكروه على كل حال وماذا عساني اكون قد قلت فيه ؟

---

(1) احد اعضاء اللجنة التنفيذية سابقا (م)

قال : لا ادري ! ولكنك تكلمت فيه بحانوت الخميرى شيئا لا ادريه .

قلت : هل لك ان تذكرني بشيء اخر .

قال : ذلك كل ما اعلم وذلك كل ما قيل لي وليس من الحق ان يذكر القران بسوء ثم نسكت عنك .

قلت : ولكن يا لله ان الكلام في القران على اوجه عديدة ومن اين لك ان الكلام كلام سوء فهل لك ان تدلني على من ذكر لك هـذا القول عله يتذكر معنا ؟

فقال : لا ادري ، قد نسيت وانما قال لي نفر :

انك تكلمت في القران .

قلت : قد يكون الناقل غبيا او مغرضا او سفيهـا وقد اكـون فسرت اية على ما لم يشته ، او ذكرت حقا راه بفكره القاصر سوءا ولكن قل لي بالله الذي انت صائم له لفظه الذي ذكره لك دون زيادة او نقصان . قال : قال لي : انك تكلمت في القران .

قلت : هكذا قال لك حرفيا ولم تزد عليه شيئا . قال : لا .

قلت : ولم تنقص عليه شيئا ايضا . قال : لا .

قلت : ومن اين لك حينئذ ان الكلام كلام سوء ؟

وكان جوابه على هذا السؤال ان ضحك .

فقلت له : الم اقل لكم ان مركز الحزب صار مصدرا للخبث ؟

فمن اين هذه الزيادة ومن اين هذه الدعايات التي تقومون

بها ضد الاشخاص . روي عن هيان بن بيان انك تكلمت في القـران ثم ان الكلام في القران يصير كلام سوء يا لها من وقاحة . فلم يـزل يضحك كان هذه الدناءة امر مضحك لا باس فيه . فسـرت في حـال سبيلي . وقد بقيت مبهوتا من اثر هذه النفسيات التي تنـزل الـى هذا الدرك من دون ما سبب ثم عجبت اكثر من ذلك لتاثير اليمين والصوم عليها فلولا ذلك لم يكن ليرشح بما رشح به فلم يزل في هذه الانفس قبس من خوف الله يرجع بها فيما شذ الى اليقين .

ان الشيخ قاسم قد تورط في هذه الاقوال . فاولا قد حسب انه باليمين الذي نتحالفه يستخرج فيما سيتخذه حجة علي فحلـف وحلفت ثم بادرته بالسؤال الاول مذكرا باليمين فتردد هنيهة وكان تردده في ذلك مفيدا ، فلم يعد من الممكن بعد سكوته زمنا ان ينكر وهو قد حلف فاضطر الى توجيه سؤال الي لا اظنه الا اختلقه :

«هل تكلمت يوما في القران ؟ »

فكان ذلك نصف اعتراف واخيرا وقد لزته ضحـك كالمجـرم الذي يرى في جريمته فخرا له .

فهؤلاء هم الذين اتخذهم محيي الدين بطانة له وانصارا للفكرة الوطنية . وقد كانوا في زمن الشيخ الثعالبي ملتصقين بالحزب ولكن هذا الرجل كان يلزمهم امكنتهم ولا يسمح لهم بمثل هذه الدسائس فلما جاء محيي الدين اصطفاهم لنفسه واراد ان ينصر حـق البـلاد بالباطل وخفي عليه انه اذا كانت لنا قوة امام الاسلحة الجهنميـة فانما هي قوة الحق فاذا اضعنا هذا السلاح فقد انتهى كل شيء .

وكان الغرض من هذه الدعايات التي يقوم بها محيي الديـن

واتباعه هي اسقاط الحداد بتاتا . واذا كان لهذا الرجل انصار فانما هم الدستوريون او النقابيون وقد بينا فيما سبق انحلال جامعة عموم العملة نهائيا وانحلال الحزب الحر الدستوري القديم كما ذكرنا انسحاب الحداد من هذه الهيئة الصورية ورفضه ان يقوم بدعاية باسم الوطن او المبادىء يقصد منها خدمة نفسه ومركزه .

ولكن اذا رفض الحداد ان ينحط الى هذا الدرك ففي البلاد رجال لا يابون الا خدمة مصالحهم فخلا لهم الجو فقاموا يسممون عليه الفكر العام الذي يحيط بهم وقد نجحوا الى حد كبير . يظهر ذلك جليا من تاثره بدعايتهم في قصيدة «الخيبة» التي نظمها سنة 1929 ويظهر ذلك ايضا مما يلي من الحوادث التي عقبت اخراج الكتاب .

واذا بقي الحداد عاطلا اخذ يفكر في حال البلاد التونسية وخيبتها ويزن بعقله الحوادث وينظر في كل ما حوله من الاسباب والمسببات حتى اهتدى الى ان المشكلة التونسية مشكلة داخلية قبل ان تكون ناتجة عن الاستعمار . ولذلك فكل مطالبة بحقوق البلاد سابقة عن اوانها ، لا يكون من نتيجتها الا اعتبارنا في الخارج كالاطفال الصغار يطلبون من وليهم شراء ما يختص بكبار الرجال . انما الذي يجب هو ان نقدم على مشكلتنا في جوهرها فنحمل عليها حملة حقيقية نقتلعها من جرثومتها .

وشفاؤنا ناتج عنده اولا وبالذات من ذهنيتنا المتاخرة . فالواجب تغيير هذه الذهنية ليمكن ادخال الاصلاحات المتاكدة واذا كنا نريد ان نعيش على ما يقتضيه العصر لننعم في حياتنا بكل ما في الحياة من خير ولنحيا حياة حرة فانما يجب ان نكون اهلا لهذه

الحياة ولذلك يجب ان نستعد لقبول الافكار الجديدة ونقبل من الامم الاخرى كل مالا يتنافى مع حياتنا الروحية .

ان اكثر ما يسيء الينا في حياتنا واكثر ما يعوقنا عن النجاح هو ذهنيتنا وحالتنا النفسية وفقدان التمييز عندنا حتى اختلطت علينا الامور وصرنا لا ندرك الضار من النافع والتبس علينا الحق بالباطل .

وهذه الذهنية المتاخرة متكونة على الاخص من عاملين قويين هماالقدر والياس فقد قامفينا الفقهاء ومشائخ الطرق(1)بدعايةواسعة لقبول الحالة التي نحن عليها الان ونجحوا في دعايتهم الى حد بعيد لان الشعب قد اتبعهم اخيرا اتباعا اعمى وليس من الممكن ان يكون غير ذلك . فان هؤلاء الفقهاء والمشائخ (الطرقيين) لا يقصدون من الدعاية الا نفع انفسهم .

والقدر في حقيقته عقيدة اسلامية . فنحن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره . ولكن يجب ان نبحث ما هو هذا القدر ؟

لقد اختلف العلماء في تفسيره على مذاهب عديدة فذهب المعتزلة الى ان الانسان مختار في افعاله وذلك مبنى التكليف . وذهب اهل السنة الى ان الانسان مجبور في قالب مختار وقالوا في الجواب عن اعتراض المعتزلة ان الله يفعل بنا ما يريد . فهو الفاعل الحقيقي وقد اناط الثواب والعقاب بالفعل والترك ولكن اذا

---

(1) للدرعي دراسة نقدية تاريخية قيمة عن «الزوايا والمجتمع التونسي» نرجو اصدارها قريبا وهي محاولة في التقويم والاصلاح .

كان الانسان مجبورا في حركاته وسكناته فان ثوابه او عقابه ناتج عن محض ارادة الله تعالى وقالوا ان للانسان كسبا هو مناط ثوابه او عقابه وهذا الكسب يرجعه بالتحليل الى انه لم يكن مجبورا وهو بحث فرق بين البحاثين والعلماء وتبع الاميون مثل كبار مشائخنا هذا او ذاك من الاصوليين تعصبا لا عن فهم ولا عن دراية لقصورهم عن ادراك حقيقة المسالة .

وجاء المجددون ومالوا الى قول المعتزلة لانهم يريدون النهوض بالشعب ولا يرون وسيلة لذلك الا من طريق تحريضه على العمل مباشرة واقباله على ما يصلح حاله ويلاحظون ان فكرة القضاء والقدر تعطله في سيره لانها تجعله يعتمد في نجاحه على المغيبات .

ولا شك ان فكرة القدر كما يفهمها معاصرونا من اخواننا المسلمين في عمومهم معطل عظيم لسيرتهم ومهما يكن من الامر ومن الاسباب التي ثارت فيها فاني لا اجد مناصا من القول بها على ما يقرب من قول اهل السنة من الوجهة الدينية والفعلية خصوصا اذا بحثنا المسالة بتجرد نقصد منه الفهم . فمن المؤكد ان الانسان غير متحكم في حظوظه وان ارادته محدودة في ميدان قليل جدا يكاد في بعض الظروف ان يكون معدوما . فقد يعترضنا اقل شيء في طريقنا يغير مجرى حياتنا كاملة . فملاقاة امراة غير معروفة بالطريق يمكن ان تكون لها نتائج لا تنقطع بعد عشرات السنين . وحصى تافهة تدخل في نعل احدنا فتدمي رجله وتعطل سيره يمكن ان يترتب عليها تكوين فرص نادرة او ضياعها . فهذه الامور تكون اسبابا لاكبر الامور . وقد اعتاد المؤرخون ان يجعلوا التاريخ معقولا يربط حوادثها بعضها ببعض ونجد عند مؤرخي العرب كثيرا من الحوادث

معللة بعلل صغيرة ولا يقنعنا عادة في الحوادث الكبار التعاليل الصغار غير اننا نتاكد من جهة اخرى ان معظم النار من مستصغر الشرر .

وهل تعلمون ان قصة يوسف اذ القاه اخوته في غيابات الجب ليتخلصوا منه فكانت هذه الحادثة البسيطة سببا في توليته وكيلا وحكيما على المملكة المصرية واحتياطه للجدب الذي اتى على مصر سبع سنين ودخل يوسف في التاريخ الديني بهذه الحادثة . اليس ذلك هو القضاء والقدر الذي لا دخل للانسان فيه ليسير العالم بحكمة الهية ويجعل نفوذ الانسان في تسيير نفسه وتسيير مصالحه قليل الاهمية ضعيف الاثر .

ان كل ذلك حقيقة لا ريب فيها وحقيقة ايضا ان كل عمل لا يمكن ان يتم لفائدة المسلمين اذا لم يكن المسلمون ليطلبوه ويسعوا في ايجاده فليس ترقي المسلمين ليتم اذا كان المسلمون ليبتعدوا عن المدنية وعن التعلم وعن تعاطي وسائل الرقي منكمشين في جحورهم بدعوى الخضوع للاقدار وانتظار ما عسى ان ياتينا من النصر .

وقد اراد بعض الناس ان يوفقوا بين نظرية القدر ونظرية وجوب السعي للمصلحة فقالوا ان الله قد وضع النواميس الطبيعية مرة واحدة وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا . ثم ان الله وضع الانسان بين تلك النواميس وكلفه بالعمل لما يرضيه بما في وسعه وبذلك يريدون ان يجعلوا للانسان قيمة كبرى في عمله تبعثه على الجهد والسعي .

ورايي ان ذلك غير مرتض من وجهين الاول : انه يترك الانسان لنفسه فليس من قوة الاهية تسيره وتعينه وتؤيده وليس الانسان

الا عاملا من العوامل الطبيعية في الوجود . فقد ضاع بذلك المعنى الروحي الذي لفكرة القضاء والقدر والثاني : ان ذلك مخالف للواقع ايضا فان الذي نشاهده ان الانسان مسير في كثير من الاوقات بقوة خفية خارجة عن ارادته قد يسميها البعض الصدفة وهي التي تسمى عندنا قضاء وقدرا . فهذه النظرية التي تجعل القضاء والقدر هو تلك النواميس الكبرى تفسر هاتين الكلمتين بحقيقة غير مشكوك فيهما ولكنها غيرهما .

واذا رجعنا الى ما كان عليه السلف الصالح قبل دخول علم الكلام من فهم القضاء وجدنا انه كان قوة بيد المسلمين تبعثهم الى المجد والقوة وتبعث فيهم حب المجازفة لانهم يتاكدون ان ما قدر فهو كائن وانهم مسؤولون عن اعمالهم فلن يتخلفوا عن واجبهم «قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا» وهذا الواجب يحدده من جهة الشرع والاخلاق ومن الجهة الاخرى تحدده الظروف المحيطة بالمؤمن وما بقي له ممكنا .

فالقضاء يترك لنا خيارا هو مناط التكليف وهو ما يعبر عنه اهل السنة بالكسب ومنه ننتظر السعي لاصلاح الحال واتجاه المسلمين نحو الغاية العليا التي يرقون بها مراتب العز والمجد مع اعتبارنا ان ذلك لا يتم الا بتوفيق من الله وتقديره واعانته ورعاية من عينه التي لا تنام ، تحرسنا في كل لحظة وتنير لنا الطريق في كل لمحة من دون ان ندرك مقدار ما لنا شخصيا في كل عمل ومقدار قوة الارادة الالاهية الملتبسة باعمالنا الا ان المؤكد ان كل عملنا بتوفيق منه وان النصر من عند الله موعودين به ان ننصره كما اننا لا نصل الى صالح ان تركنا الله وشاننا وحرمنا الله توفيقه وقد نصل الى العنت مع

القدرة الالاهية اذا اردنا ان تحصل النتائج الطيبة من دون عملنا واقتدينا بمقالة بني اسرائيل لرسلهم : «اذهب انت وربك فقاتلا» .

وليست هذه الفكرة في القدر الا باعثا على ارتكاب كل متن صعب في الامور وتسلية بعد الخيبة . وليست مبررا ابدا في التخلف عن اداء الواجبات الشرعية والاخلاقية .

وقد جاء الاحتلال الفرنسي نتيجة لتاخرنا الذي له اسباب تاريخية عميقة وتم ونجح وانقلب حماية والت الحماية الى ادارة مباشرة وكان على هذا النظام ان يوجد لنفسه انصارا . فاول ما سعى اليه هو وجود محالفة مع السلطة الزمنية وقد تمت هذه العملية بالمعاهدات فتوافقت الحكومتان على خطة معلومة ثم بقي قبول الشعب للحالة الحاضرة . وهذا يتعلق بالسلطة الروحية اكثر من سواه . فتداخل هنا رجال الدين من مشائخ علم ومشائخ طرق وكان منطقهم منطقا بسيطا جدا . يؤيدون الموجود بحكم الله وان لا مرد لقضائه وهو يفعل ما يريد . وقد ابتلانا سبحانه وتعالى بحكم النصارى فالواجب علينا الصبر الى ان يفعل الله بنا ما يريد . ولا شك انه عندما تحين الساعة وياتي امر الله بالفرج فسيصير للمسلمين من الشان شيء عظيم . فبمثل هذه الدعاية الواسعة يؤيد العلماء ورجال الطرق الحكومة الحاضرة .

وربما كان ذلك حسنا اول الامر ازاء العملية الجراحية الناتجة عن الاحتلال واما اليوم فقد صارت هذه الدعاية خطيرة جدا في ان واحد على الشعب التونسي والحكومة فاما من جهة الشعب فهي تجعله في خلاف مستمر مع السلطة في مشروعيتها وتعدمه فهم

الحالة بتاتا وتبعده عن الاستفادة من النظام المسيطر على البلاد واما من جهة الحكومة فهي تفرض عدم مشروعية سلطتها وتجعل التونسي وان خضع للحكومة وللقهر والغلبة ثائرا بالقوة ...

والذي اعتقد ان لا حاجة للشعب وللحكومة اليوم الى مثل هذا القول فقد يمكن بسهولة ان تبسط المسالة للشعب على حالها وعلى ما يقرره المستعمرون انفسهم من مهمتهم التمدينية وتبريرها لاستقرارهم والاجتهاد في اخذ المدنية عنهم حتى يمكن للشعب ان يستفيد من النظام الحاضر وان ياخذ بسبب من الرقي .

وكاني بالحكومة اعترافا بالجميل لهاتين الفئتين قد عقدت معهم محالفة دائمة على الشعب تنفعهم وينفعونها فقد حققت لهم مصالح مادية يعيشون بها على حساب الامة متمتعين منبسطين كما قال الحداد :

هو يحيا (2) بخيرنا يشكر اللـه ونحيا في ذلة التفقير

حتى صار هذا القضاء والقدر الذي كان باعثا على مجد المسلمين وسيلة لتبرير كل جريمة وتبرير كل حالة وقع فيها المسلمون من تاخرهم .

ولما ظهرت الحركة الدستورية انخرط فيها بعض الغاضبين من الشيوخ الذين لم يستفيدوا ما كانوا يرتجونه حتى اذا ما استدعتهم الحكومة ووعدتهم ، انسحبوا ، وافتوا بان المطالبة بالدستور خروج عن الامام الذي تجب له الطاعة مستدلين بقوله تعالى : «يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم» .

---

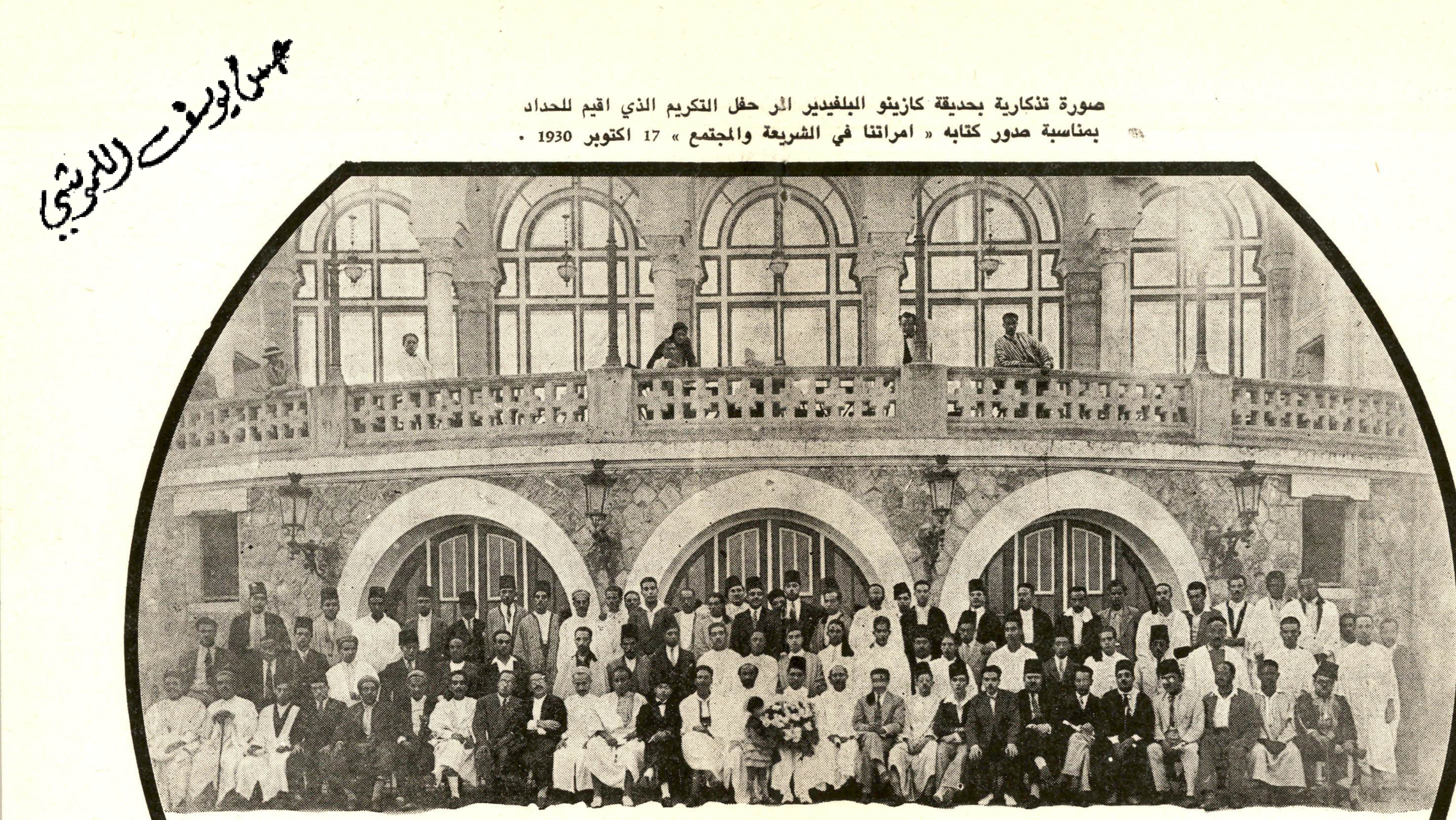
(2) نسبة الى الشيخ ـ د ـ من قصيد : ضحايا الماضي . ـ م ـ

وقد ذكرنا سابقا ان اجدادنا لم يكونوا في سنة 1881 على اجماع بان الاحتلال امر طبيعي ولكن الشيوخ الذين ايدوه باسم القضاء والقدر هم الذين جعلوه مقبولا عند العموم بعد ان كانوا يرون الواجب في مقاومته .

وقد نتج عن الحالة العامة شيء اخر هو ياس التونسيين من حالتهم فالمشاريع التي ظهرت في البلاد تدعي خير الناس قد سقطت بتمامها وظهر بها من العيوب ما زهد الناس في مثلها ، وظهر من الشعب عدم ادراك وقلة فهم وفقدان للتمييز وان لم يعدم الاندفاع في الحماس للخروج من حالته الحاضرة التي ايس خلاصه منها .

والحقيقة ان حالة الشعب التونسي الحاضرة وان كانت اسوا حالة عرفها في تاريخه فانها لا يمكن ان تبعث على الياس الا اذا خاب الشعب فيها بعد ان اتى البيوت من ابوابها . ولكن عدم الفهم الذي بثه الفقهاء ومشائخ الطرق عن قصد في الشعب بدعوى القدر يمنعه من تفهم الاشياء وقبول الرقي على الوجه اللائق ، فاذا قامت بعض محاولات لم تكن مدروسة كما ينبغي ولم يحظ بها التاييد اللازم وكانت خطوات اولى غير موفقة فسقطت فليس من اللازم ان نستنتج الياس من ذلك ، ولكن عدم وجود انفس قوية ترمي للاصلاح الحقيقي قد جعل الافراد القليلين الذين يريدون خدمة الشعب باخلاص ييأسون من نجاح عملهم. وقد راى الحداد راي العين سقوط جامعة العملة التونسية وراى ما نال الحزب الحر الدستوري القديم من الانحلال ، وراى القوات التي تدعي خدمة الشعب توارب وتتملص من العمل الصالح الذي يجر النفع للوطن ، فقد راى في كل ذلك الخلل الباعث على الياس .

صورة تذكارية بحديقة كازينو البلفيدير اثر حفل التكريم الذي اقيم للحداد
بمناسبة صدور كتابه « امراتنا في الشريعة والمجتمع » 17 اكتوبر 1930 .



* بيان اسماء من تمكنا من التعرف عليهم اعتمادا على الاستاذ الطيب الميلادي ، مشكورا .

الجلوس من اليمين الى اليسار 1) الجيلاني الحمار ... 5) عبد الرحمان عطية 6) الطيب الدبابي ... 8) الهادي العبيدي ... 11) زين العابدين السنوسي . 12) الشيخ محمد السعيدي . 13) **الطاهر الحداد** . 14) الشيخ سالم بن حميدة . 15) الصادق الشافعي . 16) الطاهر بوتورية ... 19) محمد العيد كشك . 20) محمد المرزوقي ...

الصف الثاني : من اليمين الى اليسار : ... 9) الدكتور علي الفوراتي ... 15) العروسي الحداد ... 23) محمد السرايري ...

الصف الثالث : من اليمين الى اليسار: ... 9) الطيب العنابي ... 10) محمد المانع ... 15) حسن الصيد ... 19) محمد العزيز العقربي ... 24) علي الجندوبي 25) الصادق الاجري 26) يحيى الحمروني . 27) عمر دلوعة . 28) احمد الدرعي 29) يوسف الاسود ...

ان الحداد لم يكن ليياس من الشعب وهو منه ولم يكن ليتركه وشانه وقلبه قد ملىء اخلاصا له فاراد درس مسالة واحـدة مـن مسائلنا التونسية المتشعبة اعني وضعية المراة والتي لم يقم احد منا بدراستها وتمحيصها وان يوجد لها حلا ذهنيا فيقيم بذلك الدليل على اوجه الصلاح الممكنة ، وان ليس من المستحيل ان ينقذ الله هذا الشعب اذا اقبل هذا الشعب على العمل الصالح النافع لا على التمسك بظواهر الالفاظ وقشورها دون لبها وجوهرها . ولكن ازاء هذه الدراسـة القيمة وهذا المثال الصادق الذي ابرزه في كتابه «امراتنا في الشريعة والمجتمع» قد قام جملة المتزعمين باسم الاسلام بعمل يسجله لهـم التاريخ على كل حال في مقاومة المؤلف والحملة عليه واظهار عمله سيئة ومخالفة للدين والحادا احتفاظا بمراكزهم فكانوا سببا اخر من اسباب خيبة الشعب وانا لذاكرون فيما ياتي هذه الحملة واثارهـا وطرائقها وموقف الشعب الان ازاء فكرة الحداد حتى نعلم الى اين نسير وما عسى ان تكون فكرة المستقبل وموقف ابنائنا مـن هـذه الفكرة الاصلاحية .

الزمان عدد 61 - 19 اكتوبر 1930

كتاب امراتنا في الشريعة والمجتمع

فكـــرة - 1 -

الحاح المجددين في التعرض لمسالة المراة وكلمـا بسطـوا الموضوع اثاروا الضجة حولهم .

ولم يشذ عن هذه القاعدة كتاب «امراتنـا» خصوصـا وهـذا الكتاب اشتمل على اكثر من مسالة المراة لتناوله مبـاحث اخـرى

من التشريع الاسلامي بغير ما تعورف واصطلح عليه وبغير ما علم من الدين ايضا «وعليه فالحملة مبررة» .

فكـــــرة ـ 2 ـ

الكتاب اشتمل على كثير من فتنة الهدم ومسالة المراة من النقط التي يتمسك بها زعماء التجديد او قادة حملة الهدم في الشـرق .

الزمان عدد 61 . 19 اكتوبر 1930

تعليق الزمان على مقال «الحجة طريق الحق»

فكـــــرة ـ 3 ـ

نشر المقال المذكور انما هو العمل بحرية النشر ولان لا يقال ان الجريدة تقاوم الفكرة بخنقها والحيلولة دون ظهورها لضعف الحجة عندها وقوة حجة الخصوم .

الزمان عدد 63 . 3 نوفمبر 1930 .

حول كتاب جديد ـ الطاهر صفر .

فكـــــرة ـ 4 ـ

الحملة مبررة لان الكتاب يبث تعاليم الذين تغلبت عليهم الثقافة الاروبية تقليدا خلافا للجم الغفير من الشرقيين من علماء وغيرهم ولان قوة المعارضة في الامة تدل على تمام محافظتها على شعائرها وعاداتها وذلك احسن برهان على متانة قوميتها ولولا المعارضة في الامم للافكار الجديدة لسادت الفوضى .

فكـــــرة ـ 5 ـ

ما صلح لامة قد لا يصلح لاخرى ففي المنطقة الاجتماعيــة لا ينظر للمسائل في جوهرها بل لا بد من اعتبار الشــروط النسبيــة كالوسط السياسي والثقافة وما يتصل بها من وراثة وعادات واخلاق .

فكـــــرة ـ 6 ـ

الكتاب اخذ يقابل كل شيء فيحياتنا بما فيحياة الاروبيين فيشدد اللائمة عما نحن عليه ويعجب بحال الاروبيين كثيرا حتى كاننا ادركنا في كل شيء اسفل درج الانحطاط وكانهم في اعلى مراتب الكمال .

فكـــــرة ـ 7 ـ

ذلك ليس من التحليل العلمي وانما هو حملة وهجوم شديدان .

فكـــــرة ـ 8 ـ

الكتاب لم يشمل الا على ما هو من باب الاستدلال المنطقــي الذي هو طريقة «ديكارت» وهو دون الاسلوب الجامع بين نتيجــة الفكر ومستحصل التجربة بل ان هذا الاسلوب هو وحده الذي يمكن اعتماده في المنطقة الاجتماعية وهو طريقة «باكون» (3) فصار العقل مبدا للحوادث .

(هل الحداد غير ذلك في نظريته التدريجيــة في التشريــع الاسلامي ؟)

الزمان عدد 63 ، 3 نوفمبر 1930 .

---

(3) هو الفيلسوف Bacon de Verulam الانجليزي ـ (1561 ـ 1626) (م)

على الهامش كتاب امراتنا في الشريعة والمجتمع .

قال عقدنا العزم على نشر كل ما يجد حول الكتاب .

فذكر فكرة ــ 7 ــ اعلاه ثم موقف الصحافة منه هكذا :

النديم : اعطى صورة من الكتاب بنشر مقتطفات منه ... تعاليق في تهكم وسخرية ...

النهضة : اعلنت فتح الباب للباحثين .

لسان الشعب : وصف الكتاب ورفع الستار عن مقصد صاحبه .

الزهرة : بحثت القسم الاجتماعي منه .

الزهو : اخذت قسطها من الكتاب وهي جريدة السواد الاعظم .

الوزير : نشرت تصريحات شيخ الاسلام .

الصواب : لا زلنا ننتظر موقفها .

تونس الاشتراكية (4) : اخبرت قراءها بهذه الفتنة .

تونس الفرنسية (5) : انتقدت على النظارة تدخلها في الموضــوع .

الزمــــان : عرف الناس موقفه لما نشره وينشره في الموضــوع .

العالم الادبي : انتصر لصاحب الكتاب .

---

(4) TUNIS SOCIALISTE
صدرت في 1 مارس 1921 واحتجبت نهائيا في 9 نوفمبر 1956 ــ (م)

(5) LA TUNISIE FRANÇAISE اسسها رئيس المعمرين VICTOR DE CARNIERES سنة 1892 توقفت عن الصدور اثناء الحرب العالمية الثانية ثم عادت باسم تونس فرنسا TUNISIE FRANÇAISE الى ان توقفت نهائيا في 30 جوان 1955 (م) .

تلخيص مقال من العالم الادبي ونبذ منه في الانتصار للمؤلف ثم الرد على الانتصار .

العالم الادبي	جواب الزمان
مهد للحكم الذي ستصدره النظارة العلمية بما نشره من القرار الذي كانت اصدرته بشان مجلتي المنار والسعادة العظمى وكانه يقول : ان ما حكمت النظارة سابقا بانه كفر وضلال هو اليوم اسلام صحيح .	ان للنظارة العلمية على كل حال وهو حق بيان ماتي الكتاب من زيغ وضلالال .
ليس من طبيعة العقل الانساني ولا من حق الفرد ان يطالب اخاه بان يكون على رايه تماما .	لو كانت هذه القاعدة مسلمة لكان من العبث دعوة الناس الى الحق بواسطة الانبياء والعلماء .
تطوع جماعة معظم افرادهم يفاخر بانه لم يطالع الكتاب وان الله قد برا صدره من مطالعة الكفر ، فاخذت تعلن للامة بكفر الشيخ الطاهر وكتاب الشيخ الطاهر .	تشير الى ان الحملة منشؤها الغرض لانها حكم على الشيء قبل تصوره والحقيقة خلاف ذلك لان الردود كلها قد حوت شيئا مما جاء في الكتاب وهذا لا يتاتى مع عدم المطالعة .

لقد كنت اقصد في دراسة الحملة ضد الحداد تتبع الافكار التي اتت فيها مهما كان نوعها وان أجعل فيها قائمة تبين افكار الكتاب في الموضوع على علاتها كاحصاء للافكار ولكن من الصعب جدا وضع هذه القائمة لان الحملة سيل من الالفاظ تقراها فلا تجد فيها من راي جديد واندر من ذلك ان تجد رايا جديدا صادقا فمثلا هذه الفقرة (الزمان عدد 61) :

«... فمسالة المراة من النقط التي يتمسك بها زعماء التجديد او قادة حملة الهدم في الشرق اليوم الا ترى ان الكماليين ومن والاهم كانت اظهر المسائل التي ثاروا بها على الاسلام وقوضوا منها أحكامه وتعاليمه هي مسالة المراة فقد رفعوا عنها الحجاب وسووها بالرجل في الميراث واباحوا لها التزوج بغير المسلم وجعلوا عقدتي الصداق والطلاق بيد الحاكم المدني وزجوا بها في الاعمال العمومية واقاموها مقام الرجل في كل شيء وماعدا مسالة المراة فانما ياتي بعدها في الاهمية عند هؤلاء الذين اصبح اذا خفت لهم صوت ارتفع اخر مكانه» .

وقد لخصت ذلك انفا :

«مسالة المراة من النقط التي يتمسك بها زعماء التجديد او قادة حملة الهدم في الشرق» .

واعترف ان هذا التلخيص فيه اطناب وهو من جهة اخرى مخل لان مقصد الكاتب من فقرته يفوت بحذف عبارات يقصدها من ذكره للكماليين وقوله ثاروا على الاسلام وقوضوا احكامه وتعاليمه ومن ذكره لاحكام بعينها قال ان الكماليين قرروها للمراة من رفع للحجاب وتسوية مع الرجل في الميراث واباحة التزوج بغير المسلم وجعل عقد الصداق والطلاق بيد المحكمة المدنية ... الخ فالكاتب يريد ذكر كل ذلك وغرضه ذكر ذلك فليس من الممكن تلخيص فكره لان فكره وغرضه يتعلقان بالالفاظ التي ذكرها فلا مندوحة الا بترك التلخيص وذكر كل الفصول بحروفها أو الاقدام على التلخيص المخل ...

ـ انتهى ـ

ملاحظـــة :

الى حد هذا السطر الاخير انهى الكاتب حديثه في فصـل «الحداد وموقفه في مسالة المراة» ولم اظفر بما يمكن ان يكون تتمة كاملة وشافية ضافية من حيث التعليق على جميع الجوانب التي اراد الخوض فيها . وحسبي اني واصلت العمل ليكون متناهيا الى اخر صفحة وسطر خطهما المؤلف لتكون الفائدة عامة واكثر شمولا . وعلى كل ففي الورقات الاخيرة من ذكر للصحف التي ساهمت في الحملة كاف للعودة اليها لمن يقصد الاستزادة والاحاطة بالموضوع الذي لم يتم .. مع الرجوع الى الكتاب الاصل «امراتنا في الشريعة والمجتمع» والذي هو اصل الموضوع ومصدره .

المحقق



محتويات الكتاب

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

في نفس السلسلة

- المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا
مصطفى عبد الله بعيو

- مقدمة في الفلسفة الاسلامية
الدكتور عمر محمد التومي الشيباني

- قطرات من الحبر
يوسف القويري

- طه حسين يتحدث عن اعلام عصره
الدكتور محمد الدسوقي

- التربية الاستقصائية
الدكتور احمد علي الفنيش

- تاملات في الاحتلالين الصهيوني والطليبي
الدكتور انيس القاسم .

- البنية القصصية في رسالة الغفران
حسين الواد

- البنية القصصية و مدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام
محمد رشيد ثابت

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة الطباعة الحديثة
في شوال 1395 / اكتوبر 1975
ـ تونس ـ

عدد الناشر : 100.9.75

« ... وقد كنت شخصيا تعرفت بالحداد سنة عشرين وتسعمائة والف ، اختلطنا اليفين صديقين لم يحدث طيلة الخمسة عشر حولا التي عاشرته فيها ما يكدر صفاء الود بيننا . اجتمعنا على الفكر والجد والعمل وافترقنا في ساعة موته على ذلك ...

... وقد مات الحداد اليوم وقام اصحابه يطلبون تخليد ذكراه واجمعوا على ان اقوم باكبر هذا العمل واشده وطاة علي ، وهو تحرير تاريخ حياة هذه الشخصية ... »

هذه الكلمات الموجزة من مقدمة احمد الدرعي خير دليل على ما يحتوي عليه هذا الكتاب من معلومات مباشرة وامينة عن الطاهر الحداد الذي شارك بتفكيره وكفاحه في بناء تونس الجديدة .

الدار العربية للكتاب = المقر الرئيسي : عمارة « وفاء » شارع غومة المحمودي ص . ب 3185 طرابلس ـ الجمهورية العربية الليبية . الهاتف : 47.287 . الفرع الرئيسي : 39 شارع الحبيب بورقيبة تونس العاصمة ـ الجمهورية التونسية . الهاتف : 259.430 .

الثمن : 0،800 د . ل ـ 0،950 د . ت